مقالات مختارة

إذا كنا في الصفحات السابقة قمنا بدراسة نقدية في أدب المازني ، تضمنت تلك الدراسة تحليلاً لبعض قصصه ، فإن تلك الدراسة لا تكتمل لمعرفة أدب المازني معرفة كاملة بدون أن نعرج للإطلال على بعض مقالاته ، لأن المقالة احتلت مساحة واسعة من نتاجه الأدبي ، وربما بعد أن كتب الشعر والرواية والقصة رأي أن المقالة هي الشكل الأنسب لطبيعة شخصيته أو المرحلة التي يمر بها من ناحية وأنها الألزم لما تمر به مصر من تغيرات وتبدلات من ناحية أخرى . فعكف زمناً يكتب المقال في أغلب الصحف والمجلات التي تصدر في القاهرة ، " إن مقالات المازني في الصحف لأكثر من أن تحصى .. وإن أي إحصاء لها سوف يغفل عن جانب كبير منها ..لقد بلغ مجموع ما أحصاه كتاب أعلام الأدب المعاصر في مصر : إبراهيم عبد القادر المازني ، الذي أعده الأستاذان حمدي السكوت – ومارسدن جونز – من مقالات نشرت للمازني في مختلف الصحف والمجلات (٢٠١٢) مقالا .. وذلك إضافة إلى كتبه وأحاديثه " [(١)] .

أظن أن هذا العدد من المقالات يعكس صورة واضحة لأدب المازني ، بل أن أدب المازني بخصائصه وسماته المميزة لم يتبدى ويتجلى كما ظهر في تلك المقالات وربما أن الشعر والقصة التي عالجها المازني لم تكشف عن عبقريته كما كشفت المقالات ، وأظن أن قراء العربية لم يعرفوا المازني تلك المعرفة الوثيقة إلاَّ من خلال تلك المقالات ، فهي التي أذاعت صيته ، ووضعته في مكانه من كتاب العصر الحديث ، وكان صاحب فضل على الصحافة أو على المقال الصحفي ، كما كانت الصحافة صاحبة فضل عليه ، فتبادل الاثنان الفضل " ولا شك أن الصحافة كان لها

١- المازني ساخر العصر الحديث – د . أحمد السيد عوضين – (١٠٠) .

تأثيرها – ليس على أسلوب المازني – وإنما في اختياره لمفرداته اللغوية التي يستعملها للتعبير عن أفكاره وآرائه ..نعم .. فقد غيرته الصحافة ، أو غير هو من أسلوبه ليتلاءم مع وسيلة النشر – صحفا ومجلات – لا تقتصر قراءتها على الخاصة ، وإنما تصل إلى مختلف الأوساط ، ولابد لمن يريد أن يصل خطابه إلى جميع القراء أن يختار العبارة الميسرة والألفاظ الشائعة ، ويتحاشى كل ما هو مهجور غير مطروق ، سواء في تركيب الجمل أو في اختيار اللفظ .

وليس معنى ذلك أن المازني كان لا يتحرى الجمال في صياغة مقالاته ، أو كان يهبط إلى مستوى العامية ، أو لا يحرص على سلامة اللغة .. بل استطاع في يسر أن يصل إلى حل هذه المشكلة بأن يوازن بين الحفاظ على جمال اللغة – التي وصفت بأنها اللغة الشاعرة – وبين مراعاته مستوى القراء من مختلف الأوساط .

وقد نجح المازني في هذه الموازنة نجاحا غير مسبوق ، ولعل لطبيعته السمحة السخية أثرها في هذا النجاح ، فقد راح يصوغ مقالاته في أسلوب سلس ورقيق ، وإن ظل متساميا إلى الجمال ، محافظا على روعة التعبير .

وكان حرصه الأكبر – فضلاً عن سلامة التعبير ، وروعة الصياغة – على تحري الوضوح في الإبانة عما يريد قوله ، والإفصاح في بساطة عن المعاني التي يطرحها على قارئه ..فهو لا يعرف الغموض أو الإبهام ، ولا يلجأ إلى الرمز والإلغاز ، بل يعمد إلى التعبير المباشر ، والقول الصريح ، وما كثرة الجمل الاعتراضية في أسلوبه إلاّ لهذا الحرص على زيادة الإيضاح ، وعلى تاسي أدنى احتمال للخلط أو للخطأ "[1].

وإذا كانت **المقالة** – عند المازني – تجلي ملامح وسمات وخصائص أدبه فإنها كاشفة – بكل وضوح – عن ملامح وطراز تلك الشخصية ، والتي استطعنا أن نرصد ونسجل بعض – وليس كل – تلك الملامح والخصائص من خلال دراستنا

[1] - نفس المصدر (٤٦) .

لأدبه في الصفحات السابقة " ولكن القيمة الحقيقية للمقالة ، تعتمد في المقام الأول على تجليها للشخصية الإنسانية تتوارى خلفها في خفة وحياء .. إن شخصية الكاتب الأليفة العذبة هي التي تستهوي القارئ ، وتملك عليه أقطار نفسه ، بما فيها من خفة وسحر، وجاذبية وتألق وذوق مصقول لا تفسده فظاظة ، ولين لا ينحدر إلى درجة الميوعة ، وكذلك مقالات المازني لا تستهوينا بما فيها من الأفكار العميقة والآراء المنيرة ، بل بما فيها من براعة في التصوير، ومقدرة على انتزاع الفكاهة من أكثر وجوه الحياة عبسا وتجهما " (١)

وتلك بعض المقالات التي اخترناها وفيها ، وهي تكشف عن أمرين – كما قلنا – خصائص أدبه وسمات وطراز شخصيته :

---

[1] - دكتور محمد يوسف نجم : فن المقالة – نقلا عن كتاب : المازني ساخر العصر الحديث – د. أحمد السيد عوضين (١٠١)

الحياة المصرية ينقصها المرح

نشر في : جريدة الوادى بتاريخ يوليه - ١٩٤٥

لا أعرف كيف حياة أهل الثراء والسعة والخفض فإني لست منهم، ولا عهد لي بهم، وإنما أنا من الشعب وإليه، وقد نشأت فقيرًا، وما زلت — بحمد الله — أفقرَ الفقراء إلى الله وعونه، وأبغض الناس إليّ وأثقلهم على نفسي المتطري المتدلِل.

ولكني أعرف حياة الأوساط العاديين من أمثالي، وهي في الأغلب والأعم جافة قابضة خانقة مع الأسف؛ لأن القاعدة التي تقوم عليها مقلوبة، والقضية فيها معكوسة، فالرجل يعتقد أنه ينبغي أن يكون في بيته السيد الآمر المطاع، ولست أنكر عليه ذلك؛ فإن هذا حقه على أن يعرف كيف يستعمله دون أن يُغفل واجبه فإن كونه هو رب البيت أو سيده ليس معناه أن الذين معه فيه عبيد أرِقّاء وخدم أذِلّاء، وما أكثر ما يكون معنى السيادة علو الصوت، وكثرة الصياح، وسرعة الغضب، وعنف المقال، وشدة الزجر، ونرى الرجل يكون في بيته ومع زوجته وبنيه كالِحَ الوجه مقطّب الجبين، شكسًا شرسًا، حتى إذا خرج تطلّق وجهه، وأشرقت ديباجته، وكثر ضحكه، وصار خير أنيس وأظرف جليس، فالنفخة الكذابة والمرح للإخوان دون الأهل.

وهذا الحال المقلوب يرجع إلى أمرين على الخصوص فيما أرى: الأول الخطأ الشائع بين الأوساط العاديين، وخلاصته أن المرأة لا يجوز معها إلاّ الشدة، وأن ذلك أجدى وطريقة أقصر من تكلُّف سياستها بالحكمة والحسنى، وما زلت أذكر قصة قصها على قريب لي وأنا حدث، وأكبر ظني أنه أراد أن يعظني ويدلني على النهج الأقوم

قال إن «جُنديًا» من الأتراك القدماء تزوج، فلما كانت ليلة الجلوة، ودخل على امرأته، وجلس معها إلى المائدة رأى قطة، فاستل سيفه وضرب به عنقها، ثم مسح الدم وأغمده فريعت المرأة المسكينة واستقام أمرها بعد ذلك! وأحسب أن كثيرين حتى ممن لم يسمعوا بهذه القصة، يؤثرون أن يكونوا مع زوجاتهم على هذا النحو؛ أي وحوشًا تُخشى ويُتَّقى شرها لا بعولاً تُحب وتُحترم.

وقد يستطيع الرجل أن يكون مرهوب الجانب كهذا «الجندي» السياف ولكن امرأته إذا كانت ذكية أديبة تستطيع أن تركبه كالحمار وتدعه يتوهم أنه هو السيد الذي تُفزعها نظرته، وتصعقها صيحته، بل لعلي لا أعدو الحقيقة والواقع حين أقول إن مثل هذا الرجل لا يكون زمامه إلاَّ في يد امرأته وهو لا يدري - أو يدري ولكنه لا يعرف له حيلة إلاَّ أن ينقاد — ثم يروح يتعزى بأن يُظهر الغطرسة والتجبر من حين إلى حين، وهو واثق أن امرأته لا يشق عليها أن تلين له مرة وتسايره وتحاسنه ليسلس لها قياده في غير ذلك وفيما هو أهم عندها.

والأمر الثاني الذي يرجح هذا السلوك الأعوج هو ظن الكثيرين أن الاحترام لا يكون إلاَّ بالجهامة والشتامة، وأن التبسط أو المرح يُضيع الهيبة وأن التَّفَكُّه يُنافي الوقار، وأنا ما أظن إلاَّ أن العكس هو الصحيح؛ أي إن تكلف الجهامة بلا موجب تُغري بالسخرية، وأن الحرص على مظاهر السمت والأبهة في غير موضعها - أو ما يسميه العامة النفخة الكدابة - تجعل المرء عرضة استهزاء وعبث، وما على من يشك في ذلك إلاَّ أن يجعل باله إلى الأطفال في البيوت وكيف يقلدون الكبار، فلن ترى طفلاً يقلد كبيرًا من أهل الظرف والدعابة والمرح، وإنما يقلد من يتكلَّف الوقار وصرامة الجد ومن ينفرد بالعبوس والزجر.

وقد كُنّا تلاميذ صغارًا فلم يكن أبعث لنا على التشيطن من المعلم الصخب الذي لا يقدر على كَفِّ جفوته وشراسته وصلفه؛ فكنا نرسمه على السبورة على هيئات مضحكة، ونكتب له بالطباشير الملون على الجدران كلامًا مزريًا، ويقف بعضنا في الصف أو الفصل فيروح يقلد حركاته وإيماءاته ولهجته ومشيته ونفخته وكنا قلّمَا نهدأ أو نُحسن الإصغاء إلى درسه، وكنا ربما بلغ من اجترائنا عليه أن نقلده على عينه فإذا دعا أحدنا إلى القراءة مثلاً أو ألقى عليه سؤالاً، نطق كما ينطق، ونفخ أوداجه كما ينفخها فينفجر التلاميذ ضاحكين، ويطير عقل المعلم ولكن ماذا يصنع؟ وكنا ربما ركبناه بشر من هذا العبث الخفيف المحتمل، فيستجير ولا يجير، ويلجأ إلى الناظر شاكيًا متسخطًا فلا يجديه ذلك بل يؤذيه أن يعرف الناظر أنه لا يستطيع أن يحفظ النظام وأنه لا احترام له عند التلاميذ. أما المعلم الظريف اللطيف فكنا نُقبل على دروسه ونطيعه لأنه يشعرنا أن بيننا وبينه صلة مودة، ولأنه ينعش نفوسنا بما يفيضه على درسه من المرح الخفيف.

وما يقال عن الرجل يقال مثله عن المرأة؛ فإنها لا تبرأ من التبعة عن ثقل وطأة الحياة في بيتها وجفافها ويبسها، والبيت مملكة المرأة كما يقولون لأن الشأن فيه كله أو معظمه لها، فكيف تسوس هذه الدولة الصغيرة؟ لا شك أن هناك سيدات فضليات يُحْسِنّ سياسة هذا الملك الصغير، ولكنه لا شك كذلك في أن اللواتي لا يُحْسِنّ السياسة أكثر من اللواتي يُحْسنّهَا، ولك أن تقول إنهن هُنّ الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، ومنهن من تؤدي عملها المنزلي بنفسها ولا تكِلُهُ إلى خادمة أو خادم، ولكنها قلّمَا تبدو في بيتها إلا في مباذلها، فلا ترتدي ثوبًا مقبولاً إلاَّ لتخرج أو لتستقبل ضيوفها، وقلّمَا تكف عن الشكوى مما تعاني، وقلما تجلس إلاَّ على هيئة

منفرة، وخدها على كفها. وقد تكون معذورة إذ هي ضجرت وسئمت واشتكت من التعب والعناء.

ولكن الرجل ليس أحسن منها حالاً؛ فإنه هو أيضًا مكدود مرهق سأمان وليس مما يخفف عنها أو عنه أن تتلقاه هكذا: الثياب رثة، والخد على الكف، والعين كالزجاجة لا معنى فيها ولا حياة، والوجه ساهم والشفتان مطبقتان. فإذا نطقت تأففت وتوجعت وتكلمت بكلام الضجر والتعب. وإذا حاول أن يلاطفها ويمازحها رَجَتْ منه -إذا كانت فيها رقة وأدب- أن يدعها لحالها. وإذا كانت طويلة اللسان شكسة الطباع أسمعته ما يكره، وألطف ما تقول له: «اذهب إلى غيري فمازحها فإني لا أحب المرح.» ويدور الرجل يَنْشُدُ ما يسليه ويُرَفِّه عنه فلا يجد شيئًا، حتى الحديث الطيب لا يفوز به. أفليس معذورًا إذا فَرَّ من البيت إلى المقاهي؟

ولست أُبَــرِّئُ الرجل فإنه شَرٌّ من امرأته، وفي وسعه أن يروضها على ما يوافقه. ولكنه نشأ فألفى البيت هكذا قابضًا خانقًا فجرى على سنة أبية وراح مثله يعد البيت سجنًا أو فندقًا للنوم ومطعمًا على أحسن الوجوه.

والبنون والبنات مصيبتهم كبيرة: لا يسمعون إلاَّ الشتم والتوبيخ واتهامهم بقلة الحياء وسوء الأدب كلما تحركوا أو ضحكوا أو لعبوا. كأنما لا بد أن يكونوا دُمًى وأصنامًا في السن التي تكون حيواتهم فيها مظهرها الأكبر حركة البدن.

ونحن أمة فيها فكاهة قوية. ومع ذلك نحيا حياة تقصر العمر. ومن الخطأ أن يظن أحد أن المرح خارج البيت يُغني عنه في داخله؛ لأن البيت هو الأصل والحياة فيه هي التي عليها المعول. أما ما يظفر به خارجه فبمثابة «التصبيرة» أي شيء

يستعين به الإنسان على الاحتمال والصبر حتى يعود إلى بيته فيظفر بما كان يتطلع إليه ويتشدد ويتجلّد حتى يجيء أوانه.

والمرح يطيل العمر — هذا ظني، بل يقيني — والأعمار بيد الله، ولسنا نعرف ما كتب الله لنا في لوحه وغيبه، ولكنا نعرف أن المرح يشرح الصدر ويصلح ما يتلفه الكَدُّ من الأعصاب، ويجعل المرء أصفى ذهنًا وأقوى على العمل ومواصلة الكدح وأكثر جَلَدًا وأقدر على المقاومة والكفاح وأقل استعدادًا للتهافُت والتضعضع.

وليس المرح من الاستخفاف، فالرجل المرِح لا يُعَدُّ قليل الاحتفال بالأمور الجدية أو سيئ التقدير لها؛ لأن صحة التقدير لا تنافي إعطاء النفس حقها من السرور الذي يشد الأعصاب ويصلحها ويعالج تلف الأنسجة في البدن، ولماذا نسمع الموسيقى والغناء ونشهد الروايات الفكاهية وما إلى ذلك؟ ولماذا نقسم حياتنا هذه القسمة العجيبة، فنجعلها في البيوت كربًا عظيمًا وهمًا ثقيلاً، وخارجها مرحًا وطربًا، والعكس أولى؛ فإن البيت سكن، والذي فيه أعز الناس علينا وأحبهم إلينا فهم أحق بأن نجعل حياتنا معهم كلهم بهجة وبشاشة وسرور. كان لي صديق أغناه الله عن الكدح في سبيل الرزق، وكانت داره من الطراز القديم، «فالحريم» له جناح والرجال لهم جناح مستقل، وكان يندر أن يبرح بيته، ولم يكن له أولاد، فليس في البيت إلا زوجته وخدمه من النساء والرجال، فكان إذا استيقظ ضحى، يخرج إلى جناح الرجال فيبقى فيه إلى الهزيع الثالث من الليل، يتغدى وينام، ويشرب قهوة العصر، ويقبل زواره فيجالسهم ويحادثهم ويمازحهم، ويتعشى وحده أو مع من يشاء من ضيوفه، ويقضي بقية السهرة مع من يبقون ممن يطيقون السهر أو بمفرده، ثم يدخل لينام وكنت أستغرب حياته هذه وأستهجنها، ويدركني

العطف على زوجته المسكينة، وألومه على ذلك، وأقول له فيما أقول: إنك لا تعدّها زوجة وإنما تعدها «أنثى» اتخذتها في بيتك، وإني أخشى عليها، فيسخر مني ومن فلسفتي، غير أن زوجته المسكينة جُنّتْ؟ ولعله لم يكن يحبها، فما أدري، ولكن لماذا كان يمسكها إذن؟ وقد كان بادي الرضى بحياته هو، ولكن الزواج مشاركة، وليس من العدل أن يستأثر الرجل بما فيه له رضوان؛ فإن لامرأته حقًّا في ذلك.

احرصوا على المرح في بيوتكم؛ فإنه لا يغني عنه ما تظفرون به خارجها.

obeikandl.com

الكتابة وثقلها

نشر في : جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ : أكتوبر ١٩٣٠

قد أعرف لماذا أقرأ وما يستهويني من الكتب ويغريني بالإطلاع، فإن أقلّ ما في ذلك أنه نقْلَةٌ إلى عالم غير دنيانا الحافلة بالمُنغِّصات المائجة بالمتعبات، ولكني والله لا أدري لماذا أكتب؟ ولست أراني أفدت شيئًا ولا لي أمل في شيء، وأحسبني بين الكُتّاب الوحيدَ الذي يعيش بلا أمل جادٍّ أو طمع مستحث، بل لعلي الكاتب الوحيد الذي يعتقد أن الدنيا لا تخسر شيئًا - وقد تكسب - إذا خَلَتْ رقعتها من الأدباء والشعراء، واعتقادي هذا فرع من أصل أعم وأشمل، هو أن الدنيا لا تنقص إذا قضت « الحياة » نفسها نَحْبَها فلا إنسان ولا حياة ولا نبات، وقد غَيّر زمنٌ كنت فيه مجنونًا كشيللي، فالآن صار جنوني بهوان الحياة وغرور الإنسان وعبث العيش كله، وما لقيت نعماء أو أصابني ضراء إلاَّ قلت كما قال سليمان بن داود:

« باطل الأباطيل، الكل باطل » حتى لقد هممت أن أسمي كتابًا لي « باطل الأباطيل »، كما سميت آخر « قبض الريح »، وثالثًا « حصاد الهشيم »، فليس إيثاري لهذه الأسماء عن تواضع كما توهّم البعض، بل عن نزوع إلى الاستخفاف حتى بالنفس، وعن شعور قوي بمرارة الهوان الذي أجده لهذه الحياة وكل مظاهرها.

وليس أبغض إليّ من الكتابة، ولا أثقل على نفسي من تناول القلم، وما أعرفني كتبت شيئًا إلا بعد أن أَعْيَا بالتهرب وأعجز عن الإفلات، وليس هذا لكسل فإني لا أطيق السكون، ومن أغرب ما يحدث أني أراني — كلما أردت الكتابة — أحاول قبل معاناتها أن أُعزّي نفسي بأحلام اليقظة، فآوي إلى فراشي وأستلقي عليه وأغمض جفني وأذهب أحضر إلى ذهني صورًا شتّى من الحياة كما أشتهي أن

openkanal.com

تكون، على قدر ما يستطيع خيالي أن يُلفِّق، ولا أزال كذلك حتى يغلبني النعاس أو ينهضني الشعور بالواجب، إذا كان الوقت أضيق من أن يتسع للأحلام، وفيما عدا ذلك لا أحب الأحلام ولا أؤثرها على الحقائق.

ولو كانت القدرة على اختيار الموضوع تسعفني لكنت حقيقًا - على الأرجح أن أكون أنشط إلى الكتابة، ولكن اختيار الموضوع أشق عليّ وأشد عذابًا من الكتابة نفسها على فرط مقتي لها واستثقالي لمعاناتها، وأنا أحسُّ — حين أعالج أن أهتدي إلى موضوع صالح للكتابة — كأن رأسي قد صار «قهوة برابرة» أعني مكانًا يكثر فيه اللغط وتشتد الضوضاء ولا يدري المرء كيف يفهم الناس بعضهم عن بعض، كذلك يكون رأسي، كل ما فيه ضجة عالية مرهقة تنتهي بالصداع والعدول عن الكتابة أو إرجائها إلى وقت آخر أحس فيه أني أصح وأكثر تهيّئًا لها.

والواقع - عندي على الأقل - أن نفسي لا تكون متهيِّئة للكتابة في كل وقت أو كلما أردت، ويُخيّل إليّ أن هناك أُوَيقاتٍ تحس فيها النفس مثل نشوة الخمر وهذا هو الذي أعنيه بالتهيؤ، وقد كنت أُجرِّب ذلك أيام كنت أكتب وأنا في سراح ورواح؛ أعني لما كنت غير مطالب بالكتابة، أما الآن فقد صارت الكتابة صناعة وعملاً أُؤدّيه وأنا كاره لتكرره يومًا بعد يوم بلا راحة أو استجمام، ولقد سألني بعضهم — في رسالة بعث بها إليّ — لماذا لا أقول الشعر الآن، وليس لي من جواب عن ذلك سوى أن الصحافة هي التي قطعتني عنه، والصحافة تُكسِبُ الكاتب مرونة في الأسلوب وسرعة في الأداء، ولكنها تفسد عليه «فن» الكتابة، ولا سبيل إلى الاستغناء عن «الفن» في الشعر إذا أمكن الاستغناء عنه في كتابة الصحف - المصرية على الأقل - وأقول المصرية لأن الكاتب فيها مرهق، يضطلع بأكثر مما

يجوّد معه العمل، وهي في بلادنا تغني النفس وتقمع النشاط وتغري باليأس؛ لأن المرء يكون فيها كالذي يُضرب بالسياط، لا يحس الدنيا حوله، وإنما يحس العذاب الذي هو فيه.

أحسبني كففت عن الشعر أيضًا لأني أعلى به عينًا، أعني أني انتهيت إلى أنها إحدى اثنتين: فإمّا أن يقول المرء شعرًا من أعلى طبقة وإما أن يريح نفسه ويريح الناس فلا خير في غير الكلام الخالد على الدهر، وأنا أَعْرَفُ بنفسي من أن يداخلني الغرور في شأنها، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسي وقلت «هذا كلام فارغ، وأولى بي أن أعرف قدر نفسي، فلأقلع» ورميت ديواني، حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لا يزال باقيًا!

والشعر- على كونه إلهامًا - فن يسلس بالمرانة، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطرًا واحدًا، وحسنًا فعلت، فما ينقص الدنيا الكلام الوسط؛ فإنه فيها كثير بحمد الله ثم حمد الغرور الذي فُطِرَ عليه الإنسان.

المـــال

نشر في جريدة : السياسة الأسبوعية بتاريخ : يوليه ١٩٣٢

أوصاني أبي وأبوه وكل جَدٍّ لي إلى الشيخ آدم أنْ أكنز المال، قالوا: والمال عصب الحياة، بل هو الحياة، ولا قيمة لشيء في الدنيا بغيره، وليس بحيٍّ مَنْ ليس له مال وغاية حظه أنه موجود في الدنيا ومحسوب في الأحياء على التسامح، قالوا: ولا حرية لفقير، ولا حق لمُعْدِم، ولا كرامة لمفلس، وإذا لم يكن للإنسان مُدّخر حين يمد اليد حتى إلى الأجر الذي عملتْ به، فقد خضعت رقبته لمُعطِيه حقّه، وهان عليه أمره.

قالوا، وكن مَن شئت أو ما شئت أديبًا أو عالمًا أو خُلقًا، فليس بمُجدِيك هذا فتيلًا ولا رافعك كثيرًا أو قليلاً، إذا كنت فقيرًا، وأحرِ حينئذٍ بالأدب أن يكون من ذنوبك التي تُحصَى عليك، وبعلمك أن يكون مدعاة لكرهك أو استثقال ظِلّك وبالخلق الذي أنت عليه أن يَجُرَّ عليك الهضيمة والغمط والاستخفاف، ثم كن من شئت فراغًا أو جهلاً أو سوء خلق، فلن يضيرك هذا إذا كان لك مال، فإنه شفيع لا يخيب وستر لا يُكشَف، ودرع سميكة ثقيلة وترد عنك النصال مكسرة، ولا تصدق أن في دنياك عدلاً، أو أن القوانين تكفل لك حقًا، أو أن كونك إنسانًا يجعلك مساويًا لأي إنسان سواك، إنما العدل هو المال، والحق هو المال، والمساواة هي المال، وعلى قدر مالك تكون الرغبة في إنصافك، والاجتهاد في إعطائك حقّك وتقديمك أو تأخيرك ورفعك أو حطّك، بل نظرة الإنسان إلى الإنسان تَرقّ أو تجفو، وتدعو أو تَطْرد، وتكرم أو تهين، وترحب أو تغضي، ويلمع فيها نور البشر أو يفترها الملال أو يسودها النفور تبعًا لمالَيْهِمَا، والمال يقلب المذامّ محامد، والفقر يعكس الآية ويقلب القضية.

قالوا: ولا ديمقراطية ما دام أن في الدنيا شـيئًا اسمه المال؛ لأن المال يقسم الناس فريقين: غنيًا، أي ليست به حاجة، وفقيرًا، أي به حاجة؛ ولا يستوي مستغنٍ ومحتاج. وكل ما يحاوله الإنسان من تنظيم حياة الخلق على قواعد الاشتراكية أو الشيوعية أو غيرهما مما يمكن أن يخطر له، عبث وباطل ومحال. فاعرف هذا واجعل وَكْدَكَ جمع المال وتكديسه فإنه أجدى عليك من كل تعبك تحت الشمس.

قالوا: وقد كان اليونان الأقدمون يزعمون في بعض أساطيرهم أن المرء بعد الموت ينحدر إلى وادي الأشباح. وهناك يتلقّى « أتروب » الموتى ويحصيهم، ويسلمهم إلى « شارون » النوتي لينقلهم على زورقه ويعبر بهم نهر « ستيكس » - أو نهر النسيان إذا شئت - إلى حيث يحاسبون. والنقل على الزورق بأجر، ولا بد أن يؤدي الميت هذا الأجر إلى شارون النوتي، وإلا امتنع عن نقله. وتركه معلقًا بين الدنيا والآخرة!

فحتى الآخرة فيما تصف هذه الأساطير الإغريقية يلقَى فيها ذو المال التيسير ويشقى فيها الفقير. فاعرف هذا ولا تنسه.

والمال هو الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، والشرف والضعة والكرامة والمهانة والقوة والضعف، والقدرة والعجز. ولا تصدق من يقول لك غير ذلك. جرِّد الدنيا من المال تمحُ كل هذا، وتترك الحياة باهتة مسيخة لا لون لها ولا طعم، ولا طماح فيها ولا سعي، ولا شيء من المغريات بهما. وقد أضنى الفلاسفة عقولهم في البحث عن أصل الخير والشر وغير ذلك، والأصل تحت أعينهم. وهل ثمّ أصل غير المال؟ ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك، فما عليه إلا أن يتصور الدنيا - إذا وسعه ذلك -وقد خلت من المال، فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أية قاعدة من

الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم، وعلى أنه لا حاجة بأحد أنه يرهق نفسه ويكلفها أن تتصور هذا الذي يكاد يستعصي على الخيال، ويحسب مَن شاء أن يفكر في أية خلة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإن التأمل حقيق أن ينتهي به إلى الإيقان بأن المال — كائنة من كانت صورته — يوشك أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة « التسمي »، وأعانها على البروز بعد أن هيّأ لها أن تُعرَف بأسمائها. ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكّدها وأظهر الكامن فيها، وأقام المعالم ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن « ليكرج » المشترع الأسبرطي فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفي عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تُسكّ من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تُتّخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوي، لا تساوي شيئا يستحق الذكر، فكان أن كفّ الناس عن ادخار المال؛ لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطعة صغيرة من الذهب وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم، إذ كان الحديد لا يُقتنَى ولا هو يشتري شيئًا، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرَق، فبطل التلصص وانقطع السطو وامتنعت الخيانة وما إلى ذلك، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارًا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتخذت النقود دومًا إليها في أول الأمر وسيلة لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا. ولكنها صارت تُطلَب لذاتها وتُجمَع وتُدَّخر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة؛ فتسابق الناس إليها، وتهالكوا عليها، وانقلبت غرضًا يُطلَب ويُسعَى له، وإن كانت قد ظلت مع ذلك وسيلة إلى ما وراءها مما تُعين عليه. وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح وأطفاه على اللُجّةِ، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة حتى إذا جاش وأزبد قذف بما في جوفه من طيّب وخبيث.

قالوا: وليس أقوى من المال إلاَّ القدرة على الاستغناء عنه. فمن كره أن يحشد المال ويشد به أزره ويقوي به ساعده، فلينفض منه يده. ولما كان المال هو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخطه، وتُجلّه وتحقره، وتفرح به وتحزن له، فنفضُ اليد منه معناه ومؤدّاه نفض اليد من الدنيا نفسها. وإذا كان المال قوة، فإن أقوى القوة أن تستغني عن القوة. والزاهد الذي يصفّي نفسه ويخنق شهواتها ويقتل أهواءها ويروضها على الاستغناء عن كل ما يطلبه الناس ويسعون له — هذا يخلق من روحه قوة تربى على قوة المال ولا تباليها.

قالوا: فإما أن تغنى أو تزهد، وإلاَّ عشت محتاجًا إلى الناس، والناس من تَعرف كذلك أوصاني أبي وأبوه وأجدادي إلى آدم.

صور وأخلاق : المال

نشر في مجلة :الجديد - بتاريخ مارس١٩٢٩

المال هو الفضيلة والرذيلة، وهو الخير والشر، وهو كل ما في هذه الدنيا مما ترضى عنه وتتسخّطه، وتُجلُّه وتحقره وتفرح به وتحزن له، والناس بالمال، والرجل بلا مال لا رجل ولا شيء له حساب أو قدر، ومن كان يرتاب في أن الأمر كذلك أو لا يصدقه فما عليه إلاَّ أن يتصور الدنيا — إذا استطاع — وقد خلت من المال فكيف يراها تكون؟ وإلى أي حال يرتد الناس؟ وعلى أي قاعدة من الأخلاق أو سواها تقوم العلاقات بينهم؟ وعلى أنه لا حاجة بأحد إلى إرهاق النفس وتكليفها أن تتصور هذا الذي يستعصي على الخيال، وبحسب من شاء أن يُفكّر في أية خَلّة من خلال الخير أو الشر وفي ارتباط المال بها وأثره فيها، فإنه حقيق أن ينتهي به التأمل إلى الإيقان بأن الذي اخترع النقود يوشك أن يكون هو الذي أتاح للفضائل والرذائل ولخلال الخير والشر فرصة « التسمي » وأعانها على البروز بعد أن هيّأ لها أن تُعرَف بأسمائها، ولا شك أن المال لم يخلق في النفس الإنسانية نزعاتها وعواطفها، ولكنه هو الذي أكّدها وأظهر الكامن منها، وأقام المعالم، ورسم الحدود وأحوج الإنسان إلى النظام والتشريع.

وأذكر على سبيل التمثيل أن أحد المشترعين من الأغارقة الأقدمين فطن إلى فعل المال وأثره في الحياة وفعله في عادات الناس ونفوسهم وعلاقاتهم فعمد إلى الذهب والفضة فنفاهما وأمر أن لا تسك من هذين المعدنين الساحرين نقود، وأن تتخذ العملة من الحديد، وجعل القيم خسيسة، فكانت القطعة الضخمة التي يعيا بحمل ثلاث أو أربع منها الرجلُ القوي، لا تساوي شيئًا يستحق الذكر، فكان أن

كف الناس عن ادخار المال لأن الكوم من هذا الحديد لم يكن يعدل قطع صغيرة من الذهب، وانصرفوا عن البذخ والترف في معيشتهم إذ كان الحديد لا يشتري شيئًا، ولم يبق هناك ما يستحق أن يُسرَق، فبطل التلصص وانقطع السطو وما إليه، وزال التحاسد لأن الغنى والفقر صارا اسمين لا حقيقة لهما ولا فرق بينهما إذا اعتبرت الواقع، ووقفت التجارة في حدود البلاد ومع ما وراءها، وعلى القارئ أن يتم الصورة ويلونها إذا وسعه أن يهتدي إلى ألوانها.

وقد اتُخذَت النقود أو ما إليها في أول الأمر وسيلةً لتسهيل المبادلة والمقايضة ولا تزال كذلك إلى يومنا هذا، ولكنها صارت تُطلَب لذاتها وتُجمَع وتُدّخَر رغبةً فيما تفيده من الاقتدار والشعور بالاطمئنان والكرامة والجاه والسطوة، فتسابق الناس إليها وتهالكوا عليها وانقلبت غرضًا يُطلَب ويُسعَى له وإن كانت قد ظلت مع ذلك «وسيلة» إلى ما وراءها مما تعين عليه، وهذا التهالك العنيف على المال واقتنائه هو الذي أظهر الكامن في النفس الإنسانية، وكشف عن المستور، ودفع به إلى السطح، وأطفاه على اللُجّة، والمرء في سكونه غيره حين يهتاجه شيء، كالبحر لا ترى منه وهو ساكن غير صفحته المصقولة، حتى إذا جاش وأزبد قذف بما في جوفه من طيب وخبيث.

فالمال داء الإنسانية وليس له مع الأسف دواء ولا منه شفاء، وأحس ما يكون المرء بذلك حين تصفر كفه وتسد الآفاق في وجهه.

في الكتابة والكتب

نشر في جريدة البلاغ- يونيه ١٩٤٣

كتب بعض الأفاضل يسأل عن «المازني» ما له لا يخرج للناس كتبًا في هذه الأيام. وكتب إليّ بعض الإخوان — قليل منهم — يسألني عن السر في هذا الصمت أو الكسل، أو عن داعيه، ويَحُضّنِي على التأليف والإنتاج، وروى لي أصدقاء أوفياء أحاديث بهذا المعنى دارت في مجالسهم.

فالمسألة إذن تستحق أن أقول فيها كلمة على سبيل البيان لا الدفاع. فما يحتاج من لا يصنع شيئًا إلى دفاع، أو هو عسى أن يكون الدفاع منتظرًا منه. ولكنه يستطيع أن يلزم الصمت بلا ضير عليه، وأحسب أن السؤال لم يَبْقَ له مَحَلّ بعد أن أخرجت ثلاثة كتب في شهرين، دفعنا اثنين منها إلى السوق وهما «عود على بدء» و«إبراهيم الثاني» وفرغنا من أمرهما وحبسنا الثالث وهو «ميدو وشركاه» بضعة أيام لسبب خاص ثم نلقي به في الموعد الذي آثرناه له.

غير أن هذا لا ينفي أني لبثت زمنًا لا أخرج شيئًا من كتبي فهل كان لهذا داعيه؟

ويحسن قبل كل شيء أن أتقي تهمة الكسل، وإن كنت أعترف أني أكسل خلقَ الله، وأزهدهم في كل عمل وأرغبهم في راحة، فإن عندي بضعة كتب أخرى — خمسة إذا أردت الدقة — لا ينقصها إلاَّ أن أجد ما يشجع على تهيئتها للطبع كأن أجد الورق، أو المال الجم الذي يكفي لاقتناء ضيعة، فأشتري به هذا الورق العزيز الذي صار يساوي وزنه ذهبًا، أو يتيح الله لي ناشرًا ظريفًا منصِفًا لا يغبن، وقنوعًا لا يطمع، ولا يجعل همه وكده أن يقنع المؤلف بالاكتفاء بفرحته بظهور كتابه!

أو ناشرًا يتحلى بهذه الصفات الحميدة، وعنده فوقها الورق الكافي. وما أكثر الناشرين الظرفاء، ولكن البلاء هو الورق، وأنك لا تعرف هؤلاء الناشرين أو لا تستطيع أن تعرض نفسك على من تعرف منهم، أو أنا على الأقل لو يدخل هذا في طاقتي، وإني لأوثر للكتاب أن يُحرق على أن أعرضه فيُعرض عنه من تخاطبه فيه، وعسى أن تكون هذه أنفة لا مسوغ لها، ولكن الله يخلق الناس كما يشاء هو لا كما يشاءون.

وليس بكسلان فيما أظن من يستيقظ قبل الطير وقبل أن يتنفس الصبح صيفًا وشتاءً ثم يتوكل على الله ويجلس إلى مكتبه من الخامسة إلى ما بعد التاسعة، ويقضي هذه الساعات الطوال التي يطيب فيها النوم في قراءة أو كتابة، ثم يغدو على «البلاغ» فيؤدي له حقه، ثم ينصرف إلى غير ذلك ممَّا يكون عليه عمله ثم يتغذى متوخيًا التقليل والتخفيف، ويستريح نصف ساعة، ويقوم مرة أخرى إلى كتبه وأوراقه، حتى إذا كانت السادسة تمشّى قليلًا، أو باشر أمرًا آخر، ثم عاد في الليل على مكتبه فبقي فيه إلى منتصف الليل وزيادة، إلا أن يسقم فلا يبقى له معدى عن الكف.

وليس معجبًا - وهذا ما وصفت من سيرتي على الجملة - أن ينتابني الملل أحيانًا حتى لأهم بأن أوقد نارًا أُلْقِي عليها كل ما عندي من كتب وأوراق، وأراني في هذه الحالة لا أكاد أطيق النظر إلى كتاب، وأروح أتساءل: «ما الفائدة؟ فِيمَ كل هذا العناء؟» لن تنقص الدنيا شيئًا إذا نقصت هذا المازني، فما أراها زادت به وإنها لتستغني عن أجيال متلاحقة من الكبار والصغار، والصالحين والطالحين وكأنهم ما كانوا عليها ولا دبت بهم الرجل فوقها! أأقول فوقها؟ وما فوقها هذا

أو تحتها، وأين هو؟ وما هذا الإنسان، وما خيره على كل حال؟ وليس هذا من الشك في حكمة الله سبحانه، ولكنه من فرط الإحساس بالنفس، واستهوالها أن يكون شيئًا، ثم يصبح لا شيء، وعدمًا مطلقًا إذا كان هناك عَدَمٌ مطلق وعدم غير مطلق أو من العجز عن فهم ذلك، أو عن رياضة النفس على السكون إليه.

وأسأل نفسي أيضًا، وهبني لم أَكُنْ كتبت أو نشرت شيئًا، فماذا كنت خليقًا أن أخسر، أو ماذا كان الناس خليقين أن يخسروا؟ لا شيء، فأما أنا فكنت آكل وأشرب، وأعيش كما يعيش الأكثرون، ولا أرفع عيني عن الأرض، ولا أصعد طرفي إلى السماء، وكفى بهذه نعمة، وبحسب المرء من المتاعب والمنغصات ما يكابده أمثاله ولا حاجة به إلى زيادة تجيء بها القراءة والكتابة والتفكير، وتالله إن الإنسان لمسكين! صار إنسانًا لما استطاع أن يقف على رجلين اثنتين، ووسعه بفضل ذلك أن يجيل عينه فيما حوله وأن يرفعها أيضًا إلى فوق، وقيل إنه ارتقى، ولكن ارتقاءه حرّمه ما كان ينعم به وهو حيوان يمشي على أربع كغيره من الحيوانات؛ لأنه صار الحيوان الوحيد في كل هذه الدنيا الطويلة العريضة الذي لا مفر له في العمل والكدح ليأكل ويشرب، فهو لا يأكل إلاَّ إذا سعى وكد، ولا ينال إلاَّ بقدر ما أوتي من القدرة وهو الحيوان الوحيد الذي يَعَقِّدُ الأمور على نفسه ويخلق لها المشاكل ويمنيها الأماني، ثم يروح، يعالج أن يحل هذه العقد، أو يدرك مناه، أو يحقق ما يحلم به ولو ذاق في سبيل ذلك الأمَرَّيْن!

على أن هذا استطراد مُغْرٍ لم يكن في النية، فيحسن أن أقصر، وإلاَّ اتسع مجال القول فلا ننتهي في يومنا هذا.

وأعترف أن أول كتاب لي أخرجته - وكان ديوان شعر سامحني الله وعفا عني أفرحني. فكنت لا أنفك أتناوله وأتأمل غلافه وورقه وأقلب صفحاته وأقرأ فيه وأنا جذل مزهو، وأستقصي أن أسمع مدحه والثناء عليه. فإذا فاتني ذلك اشتهيت أن أسمع ولو قدحًا، فإن كل ذكر له ولو بالسوء خير من الإهمال كأنه لم يكن. ولكني الآن أتناول الكتاب من كتبي الحديثة فأقول له:

« يا هذا إني كتبتك - صنعتك - في عشرة أيام أو عشرين مثلاً. (فإن صبري قليل وسريع النفاد. ولست أطيق أن يستغرق مني الكتاب - يشغلني بنفسه - أكثر من شهر) وها أنت ذا قد خرجت إلى الدنيا. كنت مستكنًا في رأسي، بل لم يكن لك وجود أحسه وأفطن إليه، ثم صرت كقطع السحاب السابحة، وأكبر الظن أن ليس فيها ماء ولكن خاطرًا خطر لا أدري كيف أو لم؟ فضمت قطع السحاب وكسفه بعضها إلى بعض وصارت متراكمة، حتى سدت الآفاق فيما أحس. فإمّا أن يخرج الودق من خلالها ويسيل وإلا اختنقت. كالحبلى جاءها المخاض، إمّا أن تضع وإلاّ هَلَكَتْ. والآن وقد صرتَ شيئًا يا هذا، فما أدري لماذا تعبت فيك. ولا ماذا أفيد منك؟ وليس وجودك - بعد أن وجدت - وعدمك كما كنت سِيّيْنِ فيما أرى أو أشعر. ولكن لماذا أجشم هذا العناء كله. ما قيمتك؟ ما محلك بين مخلوقات الخيال أو العقل من أمثالك؟ إني لأخشى أن تصبح صعلوكًا بين ملوك الكتب فأكون قد جنيت عليك. كما جنيت على أولادي « الآخرين »؟ ومن أدراني أنك لا تحس؟ أمن أجل أنك لا تنطق، تكون غير مُحِسٍّ مدرك؟ وعجيب أمرك! إنك إبانة، ولكنك مع ذلك أخرس لا يُبين عن نفسه. وما هي نفسك؟ أهي ما صنعت أنا بما كتبت. أم لك نفس أخرى قائمة بذاتها بعد أن صرت شيئًا قائمًا بذاته؟

وأظل أعذب نفسي بأمثال هذه الخواطر حتى أتنبه. فأكف وأهم بأن أرمي الكتاب ثم أشفق أن يكون قد أوتي الحس ورُزق الشعور، فأترفق به وقد أُرَيّتُ عليه، ويا ربما تبسمت له ملاطفًا مجاملًا، كأنه يفهم عني، وأتركه وقد كبر في ظني أو وهمي، من يدري؟ لعله يستوحش وحده في هذه الغرفة. وعسى أن لا يجد الخل الموافق له وإن كثرت الكتب حوله! وأقوم — حين يخطر لي هذا — فأرتب الكتب ترتيبًا جديدًا يضم المؤتلفة منها حتى لا تشقيها الفرقة أو تثقل عليها صحبة المخالفين.

ويخيل إليّ أحيانًا أني أسمع لغطًا في المكتبة، كأنما تتحادث الكتب وتتحاور أو تتهامس فأبتسم وأقول ليتها تفعل. وكثيرًا ما أجلس وأروح أتصور حوارًا دائرًا بين كتابين، ويطيب لي هذا حتى لتمضي الساعات وأنا ذاهل إلاّ عن الحديث الذي أجريه بينهما. ولست أذكر من هذه الأحاديث إلا طيب متعتها، ولولا نسياني وكسلي لسُقْتُ لك بعضه، على أني أرجو أن أنشط فأثبته.

وأقول الحق أني ما استطعت قط أن أسلك الكتاب مع الجماد، فإنها عصارة العقول والنفوس، وإنها لورقات لكنها أيضًا معانٍ حية تلاقي عندك ما يوائمها فتتزاوج هذه وتلك وتتولد معانٍ جديدة حية. وهل يجيء الإنسان إلى الدنيا إلاّ على هذا النحو؟ وما أكثر ما تثير هذه المعاني التي تقرأها في الكتب من معارك في نفوسنا وتعقد من مؤتمرات تطول أو تقصر، وتثمر أو تعقم، فكيف تعد من يفعل ذلك جمادًا؟ حاشا لله.

مساكين تلاميذ هذه الأيام

نشر في جريدة : أخبار اليوم – بتاريخ : إبريل ١٩٤٦

لم نكن نتعلم في حداثتنا كما يتعلم أبناؤنا الآن؛ فقد كانت المواد قليلة وأمرُها هيِّنًا ومدة الدراسة وجيزة في كل مرحلة، أو أقصر مما هي الآن، حتى لقد استطعت أن أفرغ من التعليم في المدارس- من ابتدائية وثانوية وعالية - في عشر سنوات ليس إلاَّ، ولم يكن هذا لأني كنت نابغة أو ذكيًا أو مجتهدًا. كلا، فقد كنت أغبى التلاميذ وأكسلهم وأبلدهم، وآخرهم في كل فصل ولا فخر! وكان التعليم كله باللغة الإنجليزية، إذا استثنينا اللغة العربية. حتى الترجمة كان يتولى تدريسها أحيانا أستاذان: واحد مصري للترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وواحد إنجليزي للنقل من العربية إلى الإنجليزية، وكان الأجانب الموظفون في الحكومة المصرية محتمًا عليهم أن يتعلموا اللغة العربية، وأن يؤدوا فيها امتحانات متتالية وإلاَّ فصلوا وردُّوا إلى بلادهم وجيء بغيرهم. وقد يحب القراء أن يعرفوا مبلغ اقتدار هؤلاء ومقدار علمهم بالعربية. فأقول إن أحدهم كان يدرس لنا الترجمة في المدرسة الثانوية. فدق الجرس، وأقبل الأستاذ على الفصل الذي أنا من تلاميذه، وكان معه زميله المصري، فقد كانا يحضران معًا ويتعاونان على تثقيف عقولنا الجاهلة. وكان الصيف قد جاء واشتد حره، فظمئت، ورأيت قُلة على شباك في الردهة، فملت إليها لأشرب قبل الدخول في الفصل، ورآني أستاذنا الإنجليزي، وكان فخورًا بأنه يعرف تلاميذه جميعًا بأسمائهم ووجوههم، ولكن ذاكرته خانته في تلك اللحظة، فنسي اسمي، فصاح بي: « أنت هناك اللي بتاكل ميه!

فلا عجب إذا كنا قد نبغنا على أيدي هؤلاء العلماء الفطاحل!

وكان يندر أن يرسب أحد في امتحان ما. وما أكثر ما انتقلت من « سنة » إلى « سنة » على وجه الاستثناء. وليست هذه دعوى أدعيها؛ فقد كانت أسماء المنقولين بحقهم، والمنقولين على وجه الاستثناء تُعَلّقُ على باب المدرسة. ولو أنّه كان لا بد من النجاح في امتحان كل مادة، بالحق والعدل، لبقيت إلى اليوم تلميذًا بالمدارس، أو لما أمكن أن أتخرج فيها. وقد كنا نتلقى في مدرسة المعلمين العليا علوم الجبر العالي والهندسة الفراغية وحساب المثلثات، ولا أدري ماذا أيضًا، وكل هذا مما يعجز عقلي عن فهمه، ومع ذلك نجحت في امتحان هذه العلوم، فهل هذا معقول؟ إنه الاستثناء المسعف ولا شك!

وكنا لا نحتاج إلى دروس خصوصية لسهولة الأمر أولاً، ولفقر الأكثرين ثانيًا ولأن معظم المدرسين كانوا يُكرمون أنفسهم، وينزهونها عن الكسب من الدروس الخصوصية، وقد كان كثيرون من تلاميذي فيما بعدُ يلحون عليّ أن أكون معلمًا خاصًا لهم في بيوتهم، فلا أقبل، وآنَفُ أن أذهب إلى بيت أحدهم فيقول خادمه: «جاء المعلم» كما يقول: «جاء الفقي».

ولكن أساتذتنا على قلة ما كانوا يعلموننا، كانوا يحثوننا على القراءة والاطلاع، ويعيروننا حتى كتبهم الخاصة، وكانت هذه القراءة أهم في نظرهم ونظرنا من الدروس التي نتلقاها. وأذكر أني بعد تخرجي كنت جالسًا ذات يوم في مقهى وكان معي كتاب لأوليفر وندل هولمز، فلمحت أستاذي في اللغة الإنجليزية بمدرسة المعلمين، فخففت إليه لأسلم عليه وأحييه، ورأى يدي فارغة، فقد تركت الكتاب في المقهى، فكان مما قال لي: « طبعًا أنت الآن موظف، فكفاك ما قرأت، ولا حاجة بك إلى زيادة! » فآلمني هذا التهكم، وأصررت أن يجيء معي إلى المقهى ليرى الكتاب

الـذي تركتـه فيـه ففعـل، واعتـذر، وحمـدت الله الـذي أعفـاني مـن سـواد الوجـه واستحقاق اللوم.

واليوم يتعلم أبناؤنا في المدارس فوق ما تعلمناه وأضعافه، حتى لأرتاع إذ أرى هـذه الكتب الضخمة المقررة في كـل مـادة، وأروح أسـأل: متـى يسـتطيع التلميـذ أو الطالب أن يحفظ كـل هـذه الـدروس في كـل مـادة؟ ومتى يرتـاحون، أو يخرجـون للرياضة والتنزه؟ وكيف يتسنى لأساتذتهم أن يشرحوا لهم هذه الدروس كلها الشرح الواجب، وهم مرهقون بالعمل؟ ثم ما الفائدة التي ترجى من هذا الحشو كله؟

إن التعليم ليس الغرض منه التوجه إلى الذاكرة وحشوها بالمعارف المختلفة وإنما الغرض منه تزويدها أولاً بما لا غنى عنه من المعارف الضرورية، وإيقاظ الذهن وإنماؤه وتدريبه، وإعطاء التلميذ ما يصح أن يسمى « مفتاح » المعرفة، بعد تعويده النظام في التحصيل؛ ليتيسر له فيما بعد أن يدخل من الباب الذي أعطي مفتاحه ويتوسع على هواه. والمشاهد الآن أنه قَلّ بين التلاميذ من يفتح كتابًا غير الكتب المدرسية؛ لأن وقته مكتظ، ولأن أسلوب التعليم يزهد التلميذ في القراءة والتحصيل وينفره منهما ولا يغريه بهما. وليس العيب عيب المدرس، بل عيب النظام كله؛ ولهذا يكثر الرسوب، وتتكرر الامتحانات، ويشتد الطلب على الدروس الخصوصية حتى صارت موردًا ثريًا للرزق، وسبب إرهاق شديد للآباء؛ ولهذا أيضًا صار التعليم في مصر يستغرق نصف عمر المرء، فيا لأبناء هذا الجيل الجديد من مساكين!

obeikandi.com

مشقة التحصيل

نشر في مجلة : الرسالة – بتاريخ أكتوبر ١٩٤٥

منذ ربع قرن تقريبًا، زارني شاب في جريدة الأخبار وشكا إليّ المرحوم شوقي الشاعر وقال: إنه ذهب إليه يستشيره فيما يحسن به أن يقرأ من الكتب العربية فأشار شوقي عليه بدرس كتابين وجدهما الشاب من كتب النحو وفقه اللغة فاعتقد أنه أضاع ماله، وأن شوقي أخطأه التوفيق. فقلت له: إن شوقي لم يخطئ؛ فإن النحو والصرف وما يجري هذا المجرى لا بد منه، ولا غنى عنه، ولكل لغة قواعدها وأصولها وأحكامها وفقهها، والإحاطة بهذا كله واجبة إذا كنت تريد أن تتخذ هذه اللغة أداة للكتابة، وإلاَّ فكيف تكتبها وأنت لا تعرف قواعدها؟ وصحيح أن الكتب العربية القديمة تحتاج إلى تيسير مطلبها، ولكن التيسير ليس معناه الإلغاء، فاعرف لغتك أولاً. وادرس أدبها، ثم عالج بعد ذلك ما شئت من فنون الكتابة، وأعلم أنه لا مطمع لأحد في بلوغ مرتبة ملحوظة من مراتب الأدب إلاَّ بالاطِّلاع الوافي، ولمَّا كانت لغتنا العربية؛ فهي أداتنا التي لا أداة لنا سواها ولا سبيل لنا إلى البيان إلاَّ بها، فلا مهرب لنا إذن من تحصيل هذه اللغة والتوفر على درسها.

وقد حدثت شوقي -رحمه الله- بهذا، فقد كنا نلتقي في «الأخبار» ، ونتذاكر على الرغم من رأيي المعروف في شعره، فقال لي: يا أخي قد كنت في بداية عهدي بالشعر بعد أن عدت من أوربا – ألحن وأخطئ فيسلقني الناقدون بألسنة حديدة. فالآن أنصح للشبان المبتدئين أن يعرفوا لغتهم فيشكونني ويعيبونني بذلك!

وقد قلت أيضًا لذلك الشاب المتذمر: إني لا أرى الاقتصار على درس اللغة العربية وآدابها؛ فإنه لا يكفي طالب الأدب، بل لا بد من التوفر على درس الآداب الأخرى ولا سيما الغربية منها. وحسب طالب الأدب لغة واحدة كالإنجليزية مثلاً، فإن يراعات الآداب الأخرى مترجمة إليها. وقد كان العرب حصيفين حين عُنوا بنقل الفلسفة الإغريقية فاتسعت آفاقهم، ولسنا نستطيع في عصرنا هذا أن ننقل خارجيات الغرب في الأدب والفلسفة، فإنها شيء لا آخر له، ولكن في وسعنا أن نطّلعَ عليها ونُلم بها إلمامًا كافيًا بإحدى اللغات الغربية، ونحن نلقح الشجر ليثمر ونطعمه ليؤتينا ما هو أطيب، ويجنينا ما هو أشهى، فلنلقح عقولنا ولنطعمها بما عند الغرب، ليعود أوفر إنتاجًا وأحلى جنًى، ونحن آدميون، والشجر نبات، ولكن سُنّة الحياة واحدة، وقانونها لا يختلف، وهو واحد في كل مظاهر الحياة على السواء وما يصير به النبات أقوى وأزكى، يصير بمثله الحيوان — ونحن منه — أقدر على معاناة الحياة وأصلح لها وأنجب. وليس مما يَصِحُّ في الأفهام أن نكون في القرن العشرين، ونقنع بأن نعيش بعقول القرون الخالية، وأخلق بهذا الكسل أن يحيلنا خلقًا متخلفًا من الأزمنة البائدة، وأن يجعلنا غير صالحين للزمان الذي خرجنا فيه.

وأنا أعرف أن في هذا مشقة عظيمة، ولكن الثواب على قدرها، والحياة نفسها لا متعة ولا نزهة، بل كَدٌّ ونضال وكفاح، وما يبلغ المرء في دنياه غاية أو يدرك شيئًا إلاَّ بالكفاح وعرقَ الجبين المتفصِّد. فلماذا نستثني الأدب ونراه أهون شأنًا وأيسر مطلبًا من أن يحتاج إلى عناء؟

وليعذرني القراء الأفاضل إذا رأوني ألح على شبابنا أن يعكفوا على التحصيل ويجدوا فيه ويشقوا أيضًا، فقد رأيت شبابًا كثيرين في مصر أكبر ظني أن

obeikandl.com

لهم أندادًا في غيرها يستثقلون الطلب، ويستطيلون مدته، ويستكثرون الجهد الذي يقتضيه، ويستخفون بالأمر كله ويحاولون أن يرقوا بغير سلم، وأن يبلغوا الغاية بدون أداة أو وسيلة، فلا يأتون إلاَّ بأَغَثِّ الغثاثة وأسخف السخف، ثم يروحون يتذمرون ويجأرون بالشكوى ويزعمون أنهم مغبونون مغموطو الأقدار، وأن الشيوخ يأخذون عليهم متوجّههم ويعترضون سبيلهم حسدًا، إلى آخر هذا الهراء.

ونقول لهم: إن كل علم وفن مثل الطب والهندسة والتصوير والموسيقى، إلى آخر ذلك يحتاج إلى درس طويل وتحصيل وافٍ؛ فإن المَلَكة وحدها لا تكفي، والاستعداد بمجرده لا غناء له، ما لم تؤازره المعرفة الصحيحة، فلماذا يعدون الأدب بدعًا يرونه مما يمكن الاستغناء فيه عن الآلة والأداة؟ فلا يقتنعون - أو على الأصح - لا يستطيعون أن يروضوا أنفسهم ويوطنوها على احتمال المشقة.

وأوثر أن أكون صريحًا فأقول: إن هذا تطرّ ٌلا يعجبني، وكسل لا أراه بشيرًا بخير فيحسن أن أورد طائفة من الأمثلة تبين أي مشقة احتملنا، وأي عناء صبرنا عليه وأي جهد تكلفناه في حداثتنا وصدر حياتنا قبل أن نتطلع إلى منازل الأدباء.

وقبل ذلك أقول: إن ممَّا نفعني وأغراني برياضة نفسي على التشدد والتجلد كلمة قرأتها ومنظر رأيته، فأما الكلمة فقول كوبيت في كتابه « نصيحة إلى الشبان »: إن على الشاب إذا أراد أن يكون رجلًا كاملًا لا نصف رجل أن يحلق ذقنه كل صباح بالماء البارد في الشتاء، وجو إنجلترا من أقسى الأجواء.

فقلت لنفسي: إن مصر جوها معتدل، فأنا أولى بهذه النصيحة وأقدر على العمل بها، وتوخيت بعد ذلك أن لا أستعمل إلا الماء البارد في كل حال فنفعني هذا وقواني على احتمال المؤثرات الجوية وإن كان بدني خرعًا.

وأما المنظر، فكان شابًا من العمال راقدًا على الحجارة في وقدة الظهر وشمس الصيف تضربه، وكنت يومئذٍ في السابعة عشرة من عمري، فقلت لنفسي: أنا أتململ لأن وسادتي ليست محشوة بريش النعام، وسجادتي ليست من صنعة العجم، وهذا الغلام ينام على الحجارة ولا يتأفف ولا يشكو ولا تمنعه خشونة المضجع أن ينام ملء جفنيه ... أما والله لا اتخذت بعد اليوم شيئًا وثيرًا! وما زلت إلى اليوم أوثر الخشن على الرقيق، وليس في بيتي كرسي مريح أو فراش لين، لأني أخجل أن أكون مترفًا.

ورضت نفسي على الجلَد، فاتفق في أول عهدي بدرس الأدب أن وقعت في يدي نسخة من ديوان «الشريف الرضي» مطبوعة في الهند، ليس فيها بيت واحد يسلم من التحريف، فما استطعت أن أفهم شيئًا، وكدت أيأس، ولكني تشددت وأقبلت عليه أعالج تصحيحه. وقضيت في ذلك قرابة عامين وأنا أوفّق قليلًا وأخفق كثيرًا، حتى هداني الله إلى ديوانه المطبوع في بيروت، وهو أصح وأسلم من الخطأ، وإن كان لا يخلو منه. فتشددت واسترحت.

وحبب ابن الرومي إليّ ما قرأته له مبعثرًا في كتب شتى، فطلبت ديوانه، فلم أجد إلاّ مخطوطًا -أعوذ بالله منه- في دار الكتب المصرية، وكان فيها مخطوطان آخران، ولكنى لم أُعْطَ إلا أسوأ الثلاثة وشرها، فاستنسخته وعكفت عليه سنوات طويلات المدد أحاول التصحيح والضبط، فلم أبلغ من ذلك ما أريد، ولكني بذلت غاية ما يدخل في الوسع.

وكان من أول ما اقتنيت، الأغاني طبع الساسي، وهي نسخة محشوة بالغلط ففككت الأجزاء «ملازم»، وجعلت أحمل الملازم معي واحدة واحدة إلى دار الكتب

في أوقـات فراغـي، وأراجـع النصـوص نصًـا نصًـا، وبيتًـا بيتًـا، وأدون التصـحيح أو الـتكملات علـى ورق أبـيض أعددتـه لـذلك، وصـرت ألصـق الـورق المكتـوب بـين الصفحات المطبوعة، حتى إذا إنتهيت من جزء جلدته وانتقلت إلى ما يليه، وهكذا حتى أتممت الكتاب كله. فصار ضِعفي حجمه الأصلي، وحدث لسوء حظي في أيام الحرب الماضية أن رقت حالي فجأة، واحتجت إلى مال، وأنا امرؤ ربّتني أمي — رحمها الله — على الاعتماد على النفس والاستغناء عن الناس، وبغضت إليّ الاستدانة وكل ضروب الاستعانة بالغير؛ فلم أجد لي حيلة إلاّ أن أبيع ما اقتنيت من كتب، ورأى بعضهم عندي نسخة الأغاني هذه، فألحف في طلبها، فأبيت أن أبيعها، فلم يَزَلْ يزيد في الثمن ويرتفع به حتى أغراني، وما كاد يخرج بها حتى طار عقلي وندمت أشد الندم؛ فإنها ثمرة تعبي سبع سنوات، ولكن أمي قامت بي إلى السكينة وقالت لي: « ألست قد قرأتها؟ انتهينا إذن ولا داعي للأسف! » فجعلت بعد ذلك أعزي نفسي بقولي: إن فائدة القراءة كفائدة الطعام، والمرء يأكل ليصح بدنه ولو أني نسيت اليوم ما أكلت في أمسي، لما منع ذلك أن الفائدة قد حصلت، وأن جسمي انتفع بما طعمت وكذلك العقل: يقرأ المرء ليستفيد علمًا ويقوي مداركه وينمي ملكاته، ولا يمنع حصول الفائدة أنه نسي ما قرأ أو أن الكتاب غير موجود.

وحسبي هذه الأمثلة القليلة، والحقيقة أننا أُعْطِينا الحياة لنحياها، لا لننعم بها أو نسعد، ومعنى أن نحيا أن نعمل، ومؤدى العمل أن نكدح ونتعب، والأدب مطلب كسائر المطالب له وسائله، فلا معدى عن العناء في سبيله.

من أنا ؟

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ : ديسمبر ١٩٤٥

سألت نفسي مرة: ماذا أنا؟

وأني لأدري أني صحفي، وأني معدود من رجال هذه المهنة، ولكنني لست كذلك في الحقيقة، وأي صحفي هذا الذي لا يعرف دواوين الحكومة أين هي أو بعضها على الأقل، ولا يطيب له أن يلقى الناس، ولا يُعنى بتقصي الأخبار ولا يثقُل عليه أن يبيت جاهلاً بما هو حادث في الدنيا، ومبدؤه الذي لا ينزل أو يحيد عنه هو « خبر بفلوس، بكره يبقى بلاش »؟ كلا، لست صحفيًا إلا على التسامح وإنما أنا رجل كاتب، أو أديب إذا شئت. فهبني أردت أن تكون لي بطاقة تذكر فيها مهنتي الحقيقية أو أن أثبتها في جواز سفري، فماذا أكتب؟ أأقول إني « كاتب »؟ هل يكفي هذا في تعريف من يطلع على بطاقتي أو جوازي أني رجل صناعته الكتابة؟ أوَلا يُخشى أن يتوهم أني « كاتب » في دكان أو نحوه؟ أم أقول « أديب »؟ ولكن هذه صفة لا صناعة؛ فقد يكون الرجل أديبًا ولا يكتب شيئًا، أم أقول إني « مؤلف » فإني أترجم أيضًا، وليس عملي في الترجمة بدون عملي في التأليف.

حدثت بهذا « رصيفًا » أديبًا؛ فقال إنه وقع في مثل هذه الحيرة يوم أراد السفر إلى خارج مصر بعد أن اعتزل وظيفته الحكومية، واحتاج أن يجدد جواز سفره أو يغيره، فلم يدر كيف يصف مهنته: « موظف سابق »؟ من « الأعيان »؟ من « أرباب المعاشات »؟ كاتب؟ أديب؟ مؤلف؟ روائي؟ وأخيرًا حل العقدة هو وموظف الجوازات بإيثار كلمة "المؤلف".

وغريب ولا شك أن يحتار كاتب أديب في وصف مهنته والتعريف بنفسه وإنها لحيرة تريك أن «الأديب» ليست له منزلة اجتماعية مقرّرة معترَف بها كالتاجر، أو الميكانيكي، أو الجزار، وأكبر الظن أن كثيرين من الناس لا يزالون يعتقدون أن الأدب والتسول وحياة التطفيل مترادفات، علي نحو ما كان مألوفًا منذ بضع عشرات من السنين، أيام كان الشاعر يعيش على ما يجود به عليه أهل الخير من ممدوحيه أو الجبناء ممن يهجوهم.

وقد غبر زمان كان الناس فيه يعدون الصحفي متسوّلا، وبهذه العين كان الناس ينظرون إلي معظم الصحفيين، فكان إذا أقبل صحفي علي جماعة استعاذوا بالله في سرهم، وراحوا يفكرون هل ينقدونه «شلنًا» أو حسبُه «نصف فرنك»؟ أم تراه يرجي أن يكتفي بفنجان من القهوة يشربه ويتوكل علي الله ويريهم قفاه؟ وكان الخوف من طول لسان الصحفي - لا احترام عمله وتقدير مهمته - هو الباعث الأكبر للناس علي إظهار التوقير له اتقاء لشره، ثم ارتقت الصحافة ودخل فيها لفيف من أهل الفضل وذوي المقامات الملحوظة فرفعوا من شأنها وأعلوا قدرها، حتى لقد أصبحت تسمي نفسها «صاحبة الجلالة» و"السلطة الرابعة".

أما الأديب فلا يزال مركزه الاجتماعي قلقًا، وصفته يشاركه فيها كل من هَبّ ودَبّ وسواد الناس يختلط عليهم الأمر حين تقول لهم إن فلانًا أديب، ولعل منهم من يتوهمه من جماعة الشعراء الذين كانوا قبل ربع قرن يقعدون علي دكة عالية في المقاهي ومعهم الربابة، ويروون للناس قصة أبي زيد، أو عنتر، أو سيف «اليزل» كما تسميه العامة. ولَعَلّ منهم من يتذكر حين يسمع بأديب أولئك الذين كانوا يسيرون

في الشوارع يَسْتَجْدُون، وقد وضعوا علي رءوسهم طرابيش واسعة طويلة الأزرار تختفي فيها الآذان، ثم يصفع بعضهم بعضًا وهم ينشدون ما عندهم من هزل فارغ ويرددون كلمة «كعكم» إن صح أن تسمى هذه كلمة، ويهزون رءوسهم بعنف فيدور «الزر» في الهواء. ألم يكن هؤلاء يدعون «الأدباتية»؟

ويخطر لك أن تبعث برسالة إلي تلميذ صغير فتكتب له في العنوان: «حضرة الأديب الفاضل» وإن كان ما يزال يتهجى، كأن من العيب في حقه أو الحطة له والغض من قدره أن تقول: «حضرة الطالب أو التلميذ»، وتكون أنت أديبًا له شهرة في مصر والأقطار العربية كلها شرقًا وغربًا، ويرى مركز البوليس أن يدعوك ليسألك عن شيء، فتتلقى منه دعوة هي عبارة عن قصاصة كتب عليها: «مطلوب حضور النفر فلان» فإذا بدا له أن يتأدب معك أسقط كلمة «النفر» واكتفى باسمك مجردًا.

ولا ترى أحدًا يذكر طبيبًا إلاَّ مقرونًا بلفظ الدكتور أو محاميًا أو مدرسًا إلاَّ حرص علي أن يقول الميتر أو «الأستاذ» وهكذا، إلاَّ الأديب والكاتب فإن الناس يبخلون عليه بصفته الحقيقية، أو لعلهم لا يبخلون بها وإنما يستصغرونها ويستقلونها، ويرون غيرها أدل علي التكريم.

ترى لو أراد في زماننا هذا أديب لا عمل له غير الأدب أن يتزوج، وتقدم إلي أسرة يطلب مصاهرتها وسألوه عن عمله أو صناعته. فقال لهم إنه «أديب» فماذا يكون رأيهم فيه؟ وظنهم به؟ أما أنا فأرجح أن يتوهموه عاطلًا ويحسبوه قد جاء يطلب مصاهرتهم ليسرق مالهم.

الأدب والمدرسة

نشر في : مجلة الرسالة- بتاريخ : يناير ١٩٣٩

هل كانت علومك المدرسية ذات أثر فعال في إظهار مواهبك الأدبية؟

سؤال انتقل به صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم إلى « برجه العاجي » من مجلة أدبية فرنسية ألقته على طائفة من أدباء بلادها؛ فكان جواب أحدهم: « يخيل إليّ أن الغباء وفقر الذهن وبلادة الشعور وضعف التصور وانعدام الخيال مواد مقررة رسميًا في المناهج المدرسية.

ويقول الصديق فيما عقب على هذا الجواب: « ولو سئلت لما خرجت إجابتي عن هذا المعنى.

وكنا نتحدث في هذا قبل أن أقرأه في البرج العاجي من الرسالة. قصصت على الصديق بعض ما أذكر من عهد المدرسة، ووصفت له أساتذتي في اللغتين العربية والإنجليزية، وتوخيت الإنصاف وتحريت الحق. فسألني أن أكتب هذا وأنشره، فوعدت أن أفعل. وقد بدأت أكتب وفي نيتي أن أبر بالوعد، ولكن بعد أن بلغت هذا الموضع أراني أميل إلى الإخلاف؛ فما أحب أن أسيء إلى أحد بلا موجب وبغير حق، أو أن أُرمَى بالجحود والكفران. وأكبر الظن أن الذين علموني نسوا -أو هم لا يدرون - أني كنت من تلاميذهم. فلو قلت فيهم ما قال مالك في الخمر ما عرفوا أنهم هم المعنيون، ولو أثنيت عليهم لتعجبوا وراحوا يتساءلون:

« ترى من كانوا معلميه؟ » ولعل أكثرهم قد عاد إلى التراب الذي جُبِلَ منه ولكني مع ذلك لا أراني أقدر أن أضعهم في الميزان إلا إذا وضعت نفسي معهم.

أنا أيضًا كنت تلميذًا ثم مدرسًا لسوء الحظ. وكانت ميزتي المحتمة في أيام التلمذة: « الغباء وفقر الذهن وضعف التصور » يضاف إليها الفقر، وكان يبلغ من فاقتي في ذلك الزمان أن كنت أحتاج إلى القميص الأبيض لألبسه مع البذلة

فلا نجد ثمنه. فتعمد أمي المسكينة إلى ما خلف أبي من قمصان فتصلحها فتضيق من هنا وتقصر من هناك. ولكن الياقة أو البنيقة كانت تعييها فتلبسنيها كما هي ولو جعلت لي منها حزامًا لكان هذا أصلح؛ فتصور هذا الطوق العظيم على عنقي وكنت إذ أمشي بها لا أدري ماذا أصنع وكيف أبلغ المدرسة؛ لأني كنت أحتاج إلى كلتا يدي لأهوي بجانبي الطوق عن أذني. ولكني محتاج أيضًا إلى حمل الكتب والكراسات فكيف أصنع وليس لي غير يدين اثنتين.

ولا أدري كيف نجوت من العمى؛ فقد كانت عيناي ترمدان فلا تعبأ بي المدرسة. نعم كان لها طبيب يحضر كل يوم لعيادة المرضى مِنّا. فكنا إذا سمعنا ناقوسه نجري إليه فيصفنا أمامه ولا يجشم نفسه عناء السؤال أو الفحص. بل يقول وهو يشير إلى كل واحد منا على الترتيب: «شربة. لبخة. قطرة» فيتفق أن يكون من حظك «القطرة» وشكواك أن رجلك مهيضة. أو اللبخة وبك زكام. وكنت أذهب إليه لعلاج عيني ولكني كنت أخرج مأمورًا بالشربة أو اللبخة ولا أخرج قَطُّ بالقطرة أما في البيت فكان كل ما أتداوى به من الرمد الماء البارد.

وآية غبائي وبلادتي أني كنت في كل فرقة الأخير - حتى مقعدي كان الأخير في الحجرة - وكنت لصغر جسمي وقماءتي لا أكاد أبدو للمدرّس. فهو لا يراني ولا يحس بوجودي ولا يعنى بي. وأنا أغتنم هذه الفرصة فأتشاغل عن درسه بما يخطر لي من العبث. وكان جاري في بعض الفرق ضخم الجسم كأنه الفيل الصغير وكان لجسامته يحتاج حين يقعد أن يتكئ على الدرج بكلتا يديه. وكانت عادته أن يمسح وجهه بكفيه بعد ذلك ويتمتم بقوله: «خيبة الله عليكم». يعني زملاءه التلاميذ لأنهم كانوا لا يكفون عن ركوبه بالعبث. فاشتريت مرة قليلاً مما يسمى «بودرة

obeikandi.com

العفريت » ونثرتها على الدرج فاتكأ عليه ومسح وجهه، ثم ذهب يحك كفيه وخديه حتى دمي وجهه وانقطع عن المدرسة أيامًا حتى شفي؛ ففطن المدرسون إلى وجودي بعد ذلك، وصرت أُتَّهَمُ بكل ما يحدث في المدرسة ولو وقع في فرقة غير فرقتي؛ فأنا عندهم المحرض أو الموسوس بالعبث إذا لم أكن أنا الفاعل.

أما الدروس فما كنت أفهم منها شيئًا، ولم يكن هذا ذنب المعلمين فما كانوا يقصرون في الشرح والبيان، ولكني أنا كنت لا أستطيع أن أنتفع بذلك؛ لأني أكون قاعدًا على ركبتي فوق البلاط؛ عقابًا لي على ما لم أصنع في الغالب، أو واقفًا ووجهي إلى الحائط، أو مطرودًا من الحجرة كلها. وكيف يمكن بالله أن يفهم شيئًا من لا يزال هكذا، ركبتاه على الأرض أو أنفه على الجدار أو هو يتمشى في الفناء أو الدهليز...

وكان أرق المدرسين معي وأظرفهم وألطفهم على العموم إنجليزي أنيق، كان إذا رآني - وما أكثر ما كان يُغضِبي - أخرج على النظام يدعوني أن أقف ويطلب مني أن أتهجى كلمة « مجنون » أو « شقي » وغير ذلك مما يجري هذا المجرى، ويكتفي من العقاب بهذا.

وكان لنا معلم للغة العربية غريب الأمر، كانت حجرتنا مجاورة لحجرة الناظر الإنجليزي، فكان هذا المعلم يفرغ من إلقاء الدرس وشرحه ومن التطبيق أيضًا في خمس دقائق على الأكثر، ثم يقول: « أغلقوا النوافذ كلها » فنفعل، ثم يأخذ في حديث سياسي يذم فيه عهد إسماعيل ويلعن فيه أيام توفيق ويثني على الإنجليز أطيب الثناء، ولم يكن أعجب من صنيعه هذا إلاّ إغلاقه النوافذ ليوهمنا أن الناظر الإنجليزي يسوءه أن يعلم أنه يثني على قومه ... وكنّا نناقشه ونجادله ونخالفه

فيوسع صدره ويروح يحاورنا ويداورنا ليقنعنا بأن ما خرب من نفسه عامر، وكانت تلك أيام مصطفى كامل وكنا نقرأ «لواءه» ونسمع خطبه. وأحسب أني لا أبالغ إذا قلت إنّي تلقيت دروسي الأولى في اللغة العربية من اللواء والمؤيد لا من معلميّ في المدارس، وتصور أن منهم معلمًا كان يكلفنا أن نحفظ كتاب النحو عن ظهر قلب ... بل تصور أنه كان يثني على التلميذ الذي يقول له في جواب سؤاله عن الفعل اللازم «ما هو»: «هو ما ليس كذلك»، كما في الكتاب بالحرف الواحد ولم أستطع قط في حياتي أن أحفظ شيئًا عن ظهر قلب إلا إذا جاء هذا عفوًا وعن غير قصد، فكانت درجتي في اللغة العربية هي الصفر دائمًا.

وكل ما حفظته من الشعر العربي في المدرسة قصائد قليلة مثل:

إذا المرء لم يدنَس من اللؤمِ عرضُهُ فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

وما إليها، وحتى هذه يخيل إليّ أني ما حفظتها إلاّ فيما بعد لما كبرت، ولكني أذكر على كل حال أن المدرس الذي كان يغلق النوافذ ويهجو المصريين ويمدح الإنجليز هو الذي كان يتقاضانا أن نحفظها: **وقد يكون هذا اتفاقًا محضًا.**

وكان أساتذتنا في اللغة الإنجليزية على عكس ذلك، فكانوا يرشدوننا ويساعدوننا ويقرضوننا الكتب إذا آنسوا منا ميلاً إلى القراءة، ويصحبوننا إلى مكتبة المدرسة، ويتخيرون لنا ما يوافقنا وما يسعنا أن نفهمه، ولا يبخلون علينا بالتفهيم والشرح حتى في أوقات الفراغ إذا طلبنا منهم ذلك، ولكن بعضهم كان عجيب الشذوذ، أذكر منهم واحدًا كان يعلمنا الجغرافيا الاقتصادية، فكان يكتب على السبورة رقمًا يبلغ من طوله أن بقيته تجيء على الجدار! وكان هذا مبلغ علمه

بهذه الجغرافيا، ومنهم من كان يعطينا الدرجات على الخط وجودته ولا يبالي أصبنا أم أخطأنا في الموضوع، فأجودنا خطًّا أعلانا درجة ولو كان أجهل مني.

أظن أن المدرسة لا تستطيع أن تعلم الأدب، وكل ما يسعها ويجوز أن يُطلب منها هو الترغيب والتوجيه والتسديد، وحسبها أن توفق في هذا، وأكاد أقول حسبها ألا تنفر من الأدب وتزهد فيه.

obeikandl.com

السعادة لا توهب

نشر في :جريدة أخبار اليوم- بتاريخ مارس ١٩٤٧

ضحكت حين تلقيت رسالة معنونة هكذا: « الفيلسوف الكبير... » ولبثت لحظة محجمًا عن فضها مخافة أن أقرأ فيها ما هو شر من ذلك. وإذا كانت الفاتحة أني « فيلسوف » و« كبير » أيضًا — ألا ليت من يكتبون إليّ يرونني!! وإن كنت لا أحب أن يريهم الله سوءًا — فما ظنك بالخاتمة؟ وقلت وأنا أفتح الظرف بعد طول التردد: « إذا كنت أنا فيلسوفًا، فالله يرحم مصر! » وتساءلت وأنا أهز رأسي أسفًا: متى يعتدل الميزان في بلدنا المسكين؟ حتى متى نسرف ونشتط في كل شيء: في الرضى والسخط، وفي المدح والذم، والحب والبغض؟

وتوكلت على الله، وقرأت الرسالة، فجف وجهي، وأحسست أن شعلة ساطعة ذات لهيب شديد وزفير قوي تستطير فيه، فقد ردتني بعنف إلى عهد الطفولة والشباب الذي قطعته « وثبًا »، ورفعت أمام عيني صورًا كنت أتوهم أني طويتها أو أدرت وجهها إلى الحائط.

وتلوت الرسالة مرة، وأخرى، وثالثة، ورابعة؛ فقد وجدت فيها عزاء. أنا إذن لست الوحيد الذي عانى ويعاني ما شاء الله أن يكتب له في لوحه! فهذه فتاة في سن السادسة والعشرين تكتب إليّ، فتقول:

ولو سألتني عن سر انطوائي على نفسي لحرت ولم أدر بماذا أجيب... غير أني أذكر طفولة غير سعيدة، وتعليمًا بدأ مبكرًا وسار سيرًا حثيثًا، لينقطع فجأة وأنا أشد ما أكون رغبة في مواصلته، وأحوالًا مالية مرتبكة أدت إلى ذلك الانقطاع وآمالاً كبارًا عقدتها على ذلك التعليم انهارت كأنها كوم من الرمل، واضطراري

لمزاولة عمل بسيط ينافي ما كنت أرغب فيه وأتطلع إليه، مع قوم أجزل الله لهم حظهم من تفاهة الخلق، وأصابني منهم إيذاء وإيلام وتجريح، ولقد حاولت كثيرًا أن أضحك وأن أتلقى ما تجيء به الأيام بالسخر، ولكن كلمة تبدر أو إشارة تصدر تردني إلى الحقيقة - حقيقة نفسي الموجَعة - وعبثًــــا حاولت أن أنسى أو أتناسى ... ولقد وهبني الله قبسًا من السعادة في شخص صديقة عرفتها، سيدة عاقلة فاضلة مهذبة، حباها الله ذكاء نادرًا وزودها العلم بثقافة عالية، وجمعت بين دقيق الشمائل وحميدها، وقوة العزم ومضائه، ولكن الأيام باعدت بيننا، ففقدت بفراقها هدوءًا وجدته في ظلها، وحُرِمْتُ سكينة النفس، وما كنت أفيده من علمها وفضلها وأدبها وتهذيبها ... والآن أراني قد أصبحت على شفا انهيار عصبي لا يعلم نتيجته إلا الله ... فأنا أكتب إليك راجية أن أجد عندك طبًا لما أعانيه من جراء الكبت والانطواء على النفس، من شتى الأحاسيس والانفعالات.

أنا أيضًا عانيت هذا كله وصَلِيت بحر نار لم أكن - علم الله -من جُناتها؛ فافتقرت - بعد يسر - في حداثتي، وكاد ينقطع تعليمي لولا عناد أمي وإباؤها كل الإباء أن أخرج من المدرسة، وجاء يوم يابس تناهى فيه سوء الحال، فاقترح قريب لنا - من أدنى ذوي قربانا - أن نقدم طلبًا بإعفائي من نفقات التعليم؛ فقد كان هذا هو كل ما تحرص عليه أمي، أما ما عداه فأمره مما نحتمله فيما بيننا وبين أنفسنا، وكتب الطلب، وذهب به ثم عاد يقول - أي والله، غفر الله له:

إن الناظر يطلب رشوة! وكان الناظر من أنزه الناس وأَعَفِّهِم يدًا ولسانًا وقلبًا وريعت أمي؛ فقد كان أبي محاميًا، فتعلمت منه أشياء وأبت كل الإباء، وأُوجز فأقول إنها دفعت الرشوة إلى قريبنا لا إلى الناظر المظلوم! وبعد شهر وزيادة جاء

القريب الفاضل سامحه الله يقول إن الوزارة أعفتني من نصف المصروفات فقط فقلنا: خيرًا على كل حال، وكانت «المصروفات» ستة جنيهات في العام على ثلاثة أقساط فاعطتني أمي جنيهًا من ذهب وقرشين ونصف قرش، وألهمني الله أن أتحرّز وتصور طفلاً في العاشرة يتنبه الى وجوب التحرُّز - فلم أذهب إلى «الصراف» بل قصدت إلى الناظر في حجرته، ودفعت إليه الجنيه والقروش، فاستغرب فلما قصصت عليه ما أنبأنا به القريب الفاضل، كاد يبكي، فقد كان جارًا وصديقًا لأبي، وقال إنه يأسف؛ فقد رفضت الوزارة الطلب، وأبت المجانية، وأمهلني ما شئت! فعرفنا أن قريبنا «نصب» علينا وهو في يسر ونحن نتضور.

وكانت الحياة كلها في ذلك العهد كبتًا في كبت وانطواءً تامًا على النفس ولا حاجة بي إلى شرح ذلك وبيان أسبابه؛ فإنه هو الذي كان لا مفر منه مع الفاقة، وفي الأحوال الاجتماعية التي كانت يومئذٍ مقررة سائدة. وعكفت على القراءة - وماذا كان هناك غيرها - حتى أضَرّ ذلك بصحتي وكاد يطفئ نور عينيّ ولكني كنت قد اعتدت الاعتماد على النفس، والاستقلال في التفكير والتصرف وأصابتني النوراستينيا، فلجأت إلى الأطباء فكادوا يطيرون لي ما بقي من عقلي فتوكلت على الله مرة أخرى ... وعالجت نفسي بنفسي، أو بذلت كل ما يدخل في طاقتي من جهد. وما زايلني تلف الأعصاب، ولكني أغالب ذلك بالإرادة، ورياضة النفس، ومواجهة الحقائق لا الهروب منها، وتلقي ما تجيء به الأيام بأعظم ما يسعني من التهوين، وبإنزال كل شيء منزلته دون مغالاة، وبقولي لنفسي إن هذه هي الدنيا، وأن الحياة هكذا أبدًا - كانت كذلك وستظل كذلك - والناس هم الناس فيهم الخير والشر، والفضيلة والرذيلة، وكل شيء في الحياة قسم وحظوظ وأرزاق

وفي وسع الإنسان أن يجمل الحياة. والسعادة ليست هبة تأتيه من الخارج، وإنما هي ثمرة لسكينة النفس الصحيحة الإدراك، ولا داعي على كل حال للتهويل على النفس؛ فإن ما لا يدرك في صورة ما، يدرك في صورة أخرى، وفي مقدور كل امرئ أن ينال ما حُرِمَهُ، وأن يفوز بما يبغي أو يتلهف عليه، ولو على وجه غير الذي تعذر واتقاء الكبت أوجب ما يجب؛ فإن عواقبه وخيمة، وما من أحد يعدم - إذا عني بالتماس الوسيلة - مخرجًا من الكبت- وأظن هذا جوابًا كافيًا، وإن كان غير مباشر.

المـوت

نشر في :جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ نوفمبر ١٩٣٢

رأيت الموت في صورة الشنع، وعرفت وقعه، ولذع مصابه، وهول معناه، وأنا صبي أتهجّى وأحسب الحياة كرة تُضرب وحلوى تؤكل، وقد مات أبي على عيني وكان مهول الحلم، صليب الإرادة، قليل التّشكِّي، فلما حضرته الوفاة نادى أمي وأمرها أن تُرقــده على القبلة، ثم ابتسم لي ودعاني أن أقبله، وفاضت روحه في عناقي حتى لخلته قد نام، ثم اختفى من بيننا؛ فغاب الخير كله، وشهدت جدتي لأبي وهي في سياق النزع أربعة أيام بلياليها، وكانت سِنُّها عالية، وأحسبها أرْبَتْ على التسعين إلا أنها كانت قوية، فلما جاء أجلها جعلت تفهق، ولا تكف عن ذلك حتى اختارها الله، وماتت ابنة لي بين ذراعيّ، وظلت حشرجتها ثلاث ساعات وأنا أنظر إلى وجهها الصغير وأراعي عبث الموت به وتشويهه له، وأرى كيف يخبو ضياء الناظرَيْن وتصبح العين كالزجاجة، وقضت زوجتي الأولى ويدي على رسغها وعينها تحدق في وجهي، ودمها ينزف، والموت يشيع فيها شيئًا فشــيئًا، وأخيرًا ماتت أمي فشهدت أعنف عراك بين الحياة والموت، أو بين إرادة الحياة وعدوان الفناء وأحسب القارئ يعرف ماذا يصنع الرجل إذا أبقي في الماء وكان لا يعرف السباحة، وكيف يروح يجاهد ويخبط بيديه ويضرب برجليه ويدفع برأسه، ويحاول أن يقتنص بضعة أنفاس من فوق الماء يستعين بها على الصبر والمقاومة، كذلك كانت تفعل أول ما أصابتها الذبحة، ولبثت ثمانية أيام تكافح في كل ساعة منها صورة جديدة مما يكرُّ الموت به عليها ليهزمها أو على الأصح ليخنقها، حتى لقد

كان يكبر في وهمي أحيانًا أن هناك يدًا تقبض على عنقها لتحبس أنفاسها، وهي تعالج الفكاك والتملص، حتى كلّت وأسلمت الروح، ومن ذا الذي لا يهزمه الموت؟

هذا الموت الذي يصنع بنا ذلك ماذا هو؟ هو في نظر الأحياء غول موفق، يعدو على الرضيع والصبي والشاب والشيخ، ولا يُبقي ولا يذر، ولا يحترم قوة، ولا يدرك على الضعف عطفًا، ولا يُكبر علمًا، ولا يُقدِّر أدبًا، ولا يَرِقّ لحسن، ولا تصده تقوى ولا تردعه سذاجة، ولا تغلبه حيلة، ولا يُجدي معه مكر، وأهول ما يروع المرء منه ما يتصوره من فعله، ومن منافاته ومحوه لمعنى الحياة. هذا إنسان مُحِسّ مدرِك يروح ويجيء ويأكل ويشرب ويضحك، يلعب ويخاف ويرجو، ويحزن ويفرح، ويطمع ويزهد، ويشقى وينعم، ويقعد أو يسعى، ويخيب أو يفوز، ويفتح له التفكير ميادين لا آخر لها يُعرف، ويكاد أحيانًا يُحَلِّقُ فوق الحياة ويجوز حدودها ويتصل بروح الكون، ويلهم ما لا ينفع فيه تفكُّر أو يهدي إليه تدبر. هذا الإنسان يمسي جيفة تسد الأنوف من نتنها، جيفة يشق على المرء أن ينظر إلى بلاها، أو أن يحتمل ريحها الخبيثة، وينضب كل ما كان من ماء حياة مستجير ومن سحر، وينعدم ما كان من حس وإدراك، وتجف الأماني، ويقف العقل، ويتعطل الخيال، ولا يبقى إلاَّ شيء من الإكرام له، ومن الخير للناس أن تدفنه عن العيون.

ولكن هذه المقابلة بين الحياة والموت قلّما تكون في شباب العمر؛ لأن قوة الحياة تكون أزخر وعباب تيارها يكون أطمى من أن يتجه الخاطر إلى ركود الموت، والتفكير في الموت يجيء مع الإحساس بأنّ فيض الحياة أخذ يضعف وأنّ نبعها لم يَعُدْ كما كان ثريا؛ فيستيقظ الشعور بالذات يقظة المُحِسّ بالخطر عليها، ويكذب من يقول لك إن خاطر الموت لا يجري له في بال، وإن فكرته

لا تروعه؛ فإن غريزة حفظ الذات مركوزة في الطباع، وهي تقْوَى على الأيام في الإنسان وتزداد تنبُّهًا؛ إذ كانت حياة الإنسان كلها تعرضًا واستهدافًا للمخاطر والتجربة والمعاناة يشحذان هذه الغريزة. والموت هو الخطر الأكبر على الحياة فيما يحس كل مخلوق، حتى الحيوان يجزع منه بفطرته الساذجة. فغير مقبول من امرئ أن يقول إن خاطر الموت حسن الوقع في نفسه. ولكن من الممكن أن يقول الإنسان إنه راضٍ نفسه على السكون إليه؛ إذ كان لا منجى منه ولا متحول عنه.

على أن الخاطر قد ينثني إلى الموت ويطول تفكيره فيه. حتى في أيام الشباب الجامح. ولقد عانيت آلام هذا التفكير وتنغيصه في صدر حياتي، وكان يفزعني ذكر الموت حتى لقد كنت أعوذ بأهلي وأحيط نفسي بأذرعهم، كأنما كنت أتوهم أن في وسعهم أن يحموني من أن يخطفني، والعجيب أني كنت أحس بهذه الحماية أو قل إن إحساسي لم يكن أن في وجودهم حولي حماية لي، بل بأن هذا الوجود فيه مقدار من الإيناس يَرُدُّ بعض الطمأنينة إلى النفس. ومع الطمأنينة يعود إلى المرء شيء من اتزان الأعصاب. ومتى اتزنت الأعصاب خفّ عن النفس كرب الخوف والجزع، وليس الجزع من الموت جبنًا. وإنما هو نقص في اتزان الأعصاب يتعذّر معه التفكير الهادئ الرزين الذي يستطيع وحده المحافظة على التناسب الحقيقي بين الأشياء.

ولفرط جزعي من الموت في شبابي، وهول ما قاسيت من آلام هذا الجزع قلت أتداوى بالداء. فنقلت سكني إلى حيث أجداث الموتى، وحيث كل قبر يصير كما يقول المعري - قبرًا مرارًا ضاحكًا من تزاحم الأضداد؛ لتألف نفسي فكرة الموت وتسكن إليها! وتتبلد بذلك، والعادة تبليد. والطرق عديدة إلى حيث سكنت، ولكني

كنت أوثر المشي بين المقابر في النهار وفي فحمة الظلام، وأتعمد ذلك وأحمل على نفسي به، حتى برئت من هذا الجزع أو على الأصح تبلدت وسكنت وفقد خاطر الموت لذعه، وقد رويت للقارئ من قبلُ كيف وقعت مرة في قبر متهدم عانقتني فيه جثة، وأحرى بهذه التجاريب أن تشفي، وأن تفرغ على النفس القدر الكافي الواقي من البلادة أو الاعتدال في الإحساس، وقد أصبحت من البلادة بحيث لا يبذني في ذلك دافنو الموتى أنفسهم.

ولو سئلت الحياة عن رأيها في الموت لخالفت الإنسان، والإنسان يبغي البقاء والدوام، ولو بقي لفقدت الحياة غايتها وبطل فعل عواملها، بل يذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أن دوام الحياة لمخلوقات بأعيانها يعصى على «الحياة» نفسها وينفيها، فلا تعود هناك حياة لها سنن، وإنما يكون هناك وجود هو عبث محض وقد فصّلنا ذلك في «حصاد الهشيم» ولعلنا نعود إليه في فرصة أخرى، والموت ليس فناء، ولكنما هو طَوْرٌ من أطوار الحياة، والذي يموت يخدم «الحياة» ويغذي عناصرها، كما يخدمها من وجوه أخرى، وهو حي يرزق، وليست خدمة الميت «للحياة» بأقل من خدمة الحي، ولا هذه الأخيرة أولى أو أحق بالرعاية، والقانون واحد للأحياء وللموتى، وليس للفرد قيمة خاصة، وكلّ قيمته عند نفسه لا في نظر الحياة، وهي قيمة مبعثها الشعور بالذات، ولو فقد المرء شعوره بذاته لفقد تبعًا لذلك ما ينحل نفسه من القيمة، ولما عزّ عليه الموت إلى هذا الحد، ولا استهول أن يصبح، فإذا هو جثة هامدة لا سعي لها ولا حس ولا رُوح فيها ولا نَفَس، تتحلل في التراب وتمتزج بعناصره وتتفاعل معها لتساعد «الحياة» على الإنتاج، كما ساعدها في وجوده فوق ظهر الأرض بصور الإنتاج المختلفة التي قدر عليها ووفق

إليها. وقد لا نفهم الغاية التي تقصد إليها الحياة، أو قد تقصر أذهاننا المحدودة عن إدراكها. ولكن عجزنا نحن - المحدودي الأذهان - عن إدراك كنه الحياة والتفطن إلى غاياتها ليس بدليل على أن ليس للحياة غاية، وإن كان كذلك ليس بالدليل على أن لها غاية، ولكن الحياة لا تكرر نفسها؛ لأن التكرار يكون عبثًا وسرفًا، وهذه الصرامة في قوانين الحياة والدقة الرائعة في سننها تُنَزِّهَانِهَا عن العبث، وأخلق بالإنسان - إذا نظر إلى الموت من هذه الوجهة، وجهة الحياة بالمعنى الأوسع - أن يرى فيه من السحر والفتنة مثل ما في الحياة نفسها، وأن يحس بنفسه تسمو وتحلق وتمتزج بروح الكون، وتتسرب فيها كالموجة في الموجة، وأن تذهل عن الخواطر الأرضية جميعًا.

obeikandl.com

خواطر في الحياة والموت

نشر في : مجلة الرسالة بتاريخ مارس ١٩٣٦

كلما فكرت في أمر الموت ازددت حيرة، وكنت أظن أن إطالة الفكرة فيه رياضة حسنة عليه، وأن ذلك جدير بأن يصغر الدنيا في عيني، ويجعلني بالحياة أقل احتفالًا، فإذا الأمر على خلاف ذلك، والحال على نقيضه. وما أظن بغيري إلاَّ أنه مثلي، وقد أقول لنفسي حين أخلو بها - وقلَما أفعل هذا الآن: إن كون المرء يحيا ليموت ليس بالغاية أو النهاية التي يسكن إليها الحي ويطيب بها نفسًا، وما أشبه ما يفعل بنا هذا القدر الجاري علينا بما نصنعه نحن بخراف العيد؛ نسمنها لنذبحها آخر الأمر، وفرق ما بيننا وبين الخراف أن هذه تزداد لحمًا وشحمًا وأنّا نزداد علمًا وفهمًا، ولا أدري من الذى قال إن الحياة مدرسة، ولكن الذي أدريه أنها أعجب المدارس وأخفاها - ولا أقول أقلها -حكمة؛ ذلك أن التعلم فيها يستمر إلى نهاية العمر، ولا سبيل إلى اختصار الأمر أو الاجتزاء ببعض العلم عن بعضه لانتفاء الإرادة الشخصية، ولأن المدرسة هي الدنيا كلها، فلا خروج منها إلا بالخروج من عالم الأحياء، والعالم والجاهل سِيّانِ، واللبيب كالغبي، والساعي في وزن القاعد، والمصير واحد، والمآل لا يختلف، وكل من في هذه المدرسة العجيبة يتلقّى علومه الخاصة التي لا تشبه دروس غيره، ولا ترى أحدًا يسأله هل حذق الدرس أم أهمله ونَسِيَهُ؟ وكل واحد عالم وجاهل في آنٍ معًا، يعرف ما أتيح له أن يعرف، ويجهل ما عدا ذلك أجمعه. وقَلّ أن ينتفع أحد بما تعلَّم في حياته لأنه يدفن معه في قبره ويلف عليه وعلى تجاريه ومعارفه كفن واحد. وكم تساءلت - وأنا أتدبر هذا كله - عن الحكمة في تضييع ما أفاد الإنسان في حياته من العلم والخبرة؛ ذلك أن كل ما

حصل في حياته يموت معه، وسبيل إلى استنقاذ التجاريب والمعارف والانتفاع بها بعد أن يقضي صاحبها نحبه ويستوفي أجله. فهل هذه يا ترى خسارة تصيب الإنسانية كلما مات منها فرد، أم لا خسارة هناك عليها ولا ضير؟ من يدري؟

وسهل أن يفهم المرء أن يخلق ليحيا، ولكن العسير أن تجعله يفهم أنه يخلق للممات. فلماذا يكون هذا هكذا؟ وإذا صح أن الحياة مدرسة، أفلا يكون الأصدق والأشبه بالواقع أن نقول إن غايتها تدريب الأحياء على الموت وإعدادهم له؛ ذلك أن الإنسان يموت منه كل يوم شيء، وشجرته لا تزال تتساقط ورقاتها وزهراتها واحدة في إثر أخرى، حتى تصوِّح وتعطب. وانظر ما يفعل الزمن بآمالنا ورغائبنا ومساعينا وبأجسامنا ونفوسنا؟ والآمال يدركها الحين، والشباب يذهب والصباحة يغيض ماؤها، والنشاط ينضب معينه، والشعر الأسود يبيض، والقوة تسترق، والقناة المعتدلة تتقوّس، والسمع يثقل، والنظر يضعف، والشهوات تفتر والعجز يدب دبيبه شيئًا فشيئًا؛ حتى يوافي الأجل فيكون كل هذا تمهيدًا له تتدرب به النفوس على السكون إلى الموت، حتى كر الأيام إيذان مستمر بالموت الزاحف وليس يسع الإنسان حين يتأمل ذلك إلاَّ أن يشعر أن كل يوم يعيشه هو يوم يموته والواقع أن الإنسان في يومه غير ما كان في أمسه؛ لأن الحياة قائمة على التحول أو هي دائرة على الموت إذا شئت، ولا سبيل فيها إلى بقاء شيء أو ركود حال، وكل ساعة تمضي علينا تمضي بشيء منّا، أو على الأصح بصورة من صور وجودنا، وحالة من حالات نفوسنا وأجسامنا، وكون المرء يتغير معناه أنه يذهب ويجيء غيره ويموت ثم يُخلق خلقًا آخر، ولكن سرعة التعاقب في الخلق تجعل الصورة الجديدة مولدة من القديمة الفانية وشبيهة بها شبهًا يخفي وجوه الاختلاط. والذي يديم

obeikandl.com

النظر في المرآة لا يفطن إلى التغير الذي حدث، ولكن الذي يبعد عهده بالمرايا لا يسعه إلا أن يرى أن صورته قد تغيرت، وحالت عمّا كان يعرف.

فالموت يعيث فينا نهارًا وليلاً، وصباحًا ومساءً، وكل إحساس أو رأي أو اعتقاد لنا يتغير، هو ضرب من الموت يدركنا، والشيخوخة والأمراض وما يصيبنا من خيبة في آمالنا أو إخفاق في مساعينا رياضة لنا على ما نحن سائرون إليه من المآل. وقد أتساءل أحيانًا عن معنى حياة مجهولة للموت ودائرة عليه ومتسربة فيه في كل حالة ومظهر؟ ولا جواب هناك أعرفه لسؤالي، وقد يئست من إمكان الاهتداء حتى لم أعد أحفل لا الحياة ولا الموت، أو أبالي كيف أكون في يومي، وماذا يكون من أمري في غدي. وهل الإنسان إلاَّ مقبرة متحركة؟ بل أنا أبالي - كما قدّمت في مستهل هذه الكلمة - ولكني أغالط نفسي، وأصرِفُهَا عن النظر إلى هذا الجانب الأسود، وألهيها وأسليها بما أستطيع أن أريقه على جوانب العيش من ضوء يرذّها مشرقَة ضاحكة. ومن هنا نشداني للفكاهة وحرصي على الوقوع عليها. ومتى تساوى الحزن والفرح، وتعادل الغضب والرضى، وكان الاهتداء في وزن الحيرة والضلال، وصار البكاء والضحك سِيّيْن، فالضحك أولى إذا قدرت عليه، والدنيا مأتم فما أحقنا بأن نسر الناس، أو نسري عنهم، أو نذهلهم لحظات عن تنغيص حياة مبطّنة بالموت، وذلك يتطلب الإرادة، ولكن الإرادة تكتسب.

سرقت لأصبح أديبًا

نشر في جريدة : أخبار اليوم بتاريخ سبتمبر ١٩٤٨

حدثني بعض الزملاء قال إن الأدباء الشبان يزعمون أننا نحن « الشيوخ » كما يسموننا - نسد في وجوههم كل الفجاج! فتبسمت وقلت لنفسي: يظهر أن شياطيننا مردة، وشياطينهم صبية صغار لا يزالون يلعبون في « الحارة » ويُهملون اكتساب المعرفة والتجربة والحنكة!

وأتكلم جادًا فأقول إني تذكرت كيف كنت وأنا غض السن صغيرها، وكيف كان يُخجلني حتى أن أمر على مقهى، فأنزل عن الرصيف إلى الشارع! وكيف كنت أحيي الليل بالسهر وأنا عاكف على قراءة كتب عويصة مثل « أصل الأنواع » لداروين. وعلى طبعة سخيفة ولكنها رخيصة — وتلك كانت مَزِيَّتها يومئذٍ — لكتاب الأغاني تكاد تعصف بالعقل، وعلى طبعة « هندية » أهداها إليّ صديق كريم لديوان الشريف الرضي، محشوة بالأغلاط والتصحيف والتحريف.

وتذكرت كيف كنت أنفق نصف دخلي على اقتناء الكتب، وكان موظفو مكتبة « ديمر » يعرفونني ويأتمنونني لكثرة ما أشتري منهم، وهو في كل شهر فوق الكفاية لشهور، ومع ذلك غافَلْتُهم وسرقت طبعة « جيب » لروايات شكسبير، وإن كانت عندي مجموعة كاملة منها بشروحها وتفاسيرها، ولا خوف من الاعتراف بهذه الجريمة، فقد سقطت « بمضي المدة » ثم إنها جريمة طالب معرفة، لا جريمة طامع في مال!

وكنت كثير « الغياب » في مدرسة المعلمين، لأني كنت أسهر إلى الصباح أقرأ وأحاول أن أفهم، ثم أنام فأتخلّف. فدعاني ناظر المدرسة المرحوم إسماعيل حسنين

باشا -عليه ألف رحمة - وقال لي، « يا بني، إنك « حمار» في العلوم الرياضية. وأنا أخشى عليك الرسوب، ولا ألومك على التخلف ما دام هذا عذرك. فخذ إجازة خمسة عشر يومًا، واقرأ ا شئت. ثم واظب بعد ذلك على الحضور.

وكان أساتذتنا يحضوننا على القراءة. وتخرجت، وصرت مدرسًا في مدرسة ثانوية. واتفق يومًا أن كنت في مقهى فيما يعرف الآن بميدان الإسماعيلية. وكان معي كتاب « الشاعر على مائدة الإفطار» لويندل هولمز. وكنت أقرأ فيه. فما كان هناك يومئذٍ بنات يشغلن الجّالس في المقهى بالنظر إليهن مُقْبِلات ومُدْبِرات. فمر أستاذي في الأدب الإنجليزي، فنهضت لتحيته. فقال لي بعد كلام: « لقد أصبحت موظفًا، وأكبر ظني أنك انصرفت عن القراءة والاطلاع. » فأريته الكتاب، فربّت على كتفي وقال: « هذا ما أرجو. أن تظل تقرأ وتقرأ ولا تشبع، وأن تحرص دائمًا على أن تضيف عقولًا إلى عقلك. » فقلت في سري: هذا مثل كلام الجاحظ الذي ما ترك في زمانه شيئًا يُقرأ إلا قرأه. وقد مات حين سقطت عليه كتبه!

وكنت أكتب، وأنظم الشعر، وأحاول النشر، ولم يكن ثمة سوى جريدتين تشجعان الأدب، هما « الدستور» لفريد وجدي بك، و« الجريدة » للطفي السيد بك وكنا نفرح حين يُنشر لنا شيء، وإن كنا لا نتقاضى عليه أجرًا، فما كان يخطر لنا الأجر على بال. ونظمت قصيدة طويلة قلت أنشرها في « اللواء » فلبثت ثلاثة أسابيع أسعى وأرسل الشفعاء والوسطاء حتى نُشِرَ نصفها!

وكنا نطبع الكتب على نفقتنا، ونودعها المكتبات « أمانات ». ويتكفل الإخوان « بتوزيع » بعضها مجاملة ومساعدة. ومن ألطف ما يُروى أن أحد إخواننا

طبع كتابًا، وأودع نسخًا منه مكتبة، ثم مَرّ بعد شهور بالمكتبة يسأل عمّا بيع من كتابه، فطلب صاحبها « الإيصال » فقدمه إليه، فدسه في فمه وبلعه!

وأصبحت أديبًا معروفًا، تستكتبه صحف شتى، واسمه يظهر كل يوم، وكنت أكتب وأنشر، منذ سنة ١٩٠٧، ومع ذلك بِعْتُ أضخم كتاب لي- وأحسن ما كتبت في رأي بعض الزملاء- في سنة ١٩٢٤ بثلاثين جنيهًا! وقد طُبِعَ الكتاب ثلاث مرات، ولكن هذا كل ما أفدت منه، ويقول المثل العامي « يكفيني نعيرها » أي الساقية ولم يخرج منها ماء! وقد كفاني « نعيرها » فعلاً.

وفي سنة ١٩٢٩ تفضل ناشر فطلب أن ينشر لي « صندوق الدنيا » وهو أروج كتبي، فقبلت وطُبِعَ الكتاب، ونفد، ولم أقبض من ثمنه مليمًا واحدًا!!

وفي سنة ١٩٣٠ طلبت مني مجلة الهلال مقالًا، فلبيت، وبعد أيام تلقيت رسالة مسجلة فيها « شيك » بخمسة جنيهات! وكنت وحدي في غرفتي، ومع ذلك احمرّ وجهي خجلاً - أو شعرت أنه أحمَرّ- فقد كان هذا أول أجر على مقال أدبي وكان قد تقرّر في نفسي أن الإنتاج الأدبي لا يباع، ولا يطلب به الربح.

أريد أن أقول إن طريق الأديب طويل وشاق، وإن ظل خطوة فيه تتطلب منه كفاحًا وصبرًا، وإن الذين يُعَدُّون شيوخًا فيه إنما صاروا كذلك، لا بارتفاع السن، بل بأنهم يعدون أنفسهم « تلاميذ » لا تنقضي حاجتهم إلى الدرس والتحصيل والمثابرة عليهما، وبالنظر والتأمّل، ومحاولة الإدراك الصحيح.

وهل يستطيع أحد أن يعيش بلا طعام؟ كذلك العقل لا بد له من غذاء.

في الحب أيضًا

نشر في مجلة «الرسالة» بتاريخ ٠ فبراير ١٩٣٧

أرجو ألاَّ يتوهم أحد أن هذا حديث في فلسفة الحب؛ فإنه لا قدرة لي على الفلسفة، وقد فقدت إيماني بها منذ خذلتني وخيّبت أملي وعجزت عن أن تفسر لي شيئًا مما يحيرني في هذه الحياة. وقد قرأت كثيرًا مما كتبه الذين ينسبون إلى الفلسفة وإلى البحث العلمي، غير أني لم أقتنع به ولم أسترح إليه، ومن سوء الحظ حظي أنا بالطبع كما لا أحتاج أن أنبه- أنه ليس لي في هذا الباب تجربة تستحق الذكر، حتى كنت أعرض ما يقول الفلاسفة والعلماء على ما جربت، وأرى إلى أي حد أصابوا ووُفِّقوا. ولست أكتمكم أني عاجز عن هذا الحب، وعسى أن أكون واهمًا لا عاجزًا، ولكني ما قرأت قَطُّ شعر العشاق وما قالوه في الصبابة والوجد وفيما تضطرب به نفوسهم وتجيش به صدورهم من الخوالج والإحساسات في القرب والبعد، والإقبال والصد، والمواتاة والحرمان، ولا سمعت ممن أعرفهم وصف ما جربوا من ذلك إلا قلت لنفسي — حين أخلو بها: «اسمحي لي يا نفس أن أقول» : إنك - ولا مؤاخذة - بليدة » فتسألني: لماذا ؟ فأقول « لأني لا أراك تحسين شيئًا من هذا الذي أجمع على وجوب الإحساس به الشعراءُ والناسُ قاطبة. فهل أنت بليدة أم هؤلاء كلهم كذابون أو على الأقل مبالغون؟ » ولا أحتاج أن أقول إني لا أخرج من هذا الحوار الذي يدور بيني وبين نفسي بشيء آنس به وأستريح إليه؛ فإنها تصر على أن الناس مبالغون وأُصِرُّ أنا على منطق « قرقوش » المشهور؛ فقد قالوا إن ناسًا كثيرين وضعوا رجلاً من الأحياء في نعش وحملوه فيه كالميت، فمر قرقوش بجنازته فصاح به الرجل مستنجدًا وأكد له أنه لا يزال على قيد الحياة، فأطرق قرقوش قليلاً، وفتل

شعرات من لحيته، ثم رفع رأسه ونظر إليه وإلى الناس وقال: « أتريد أن أصدقك وأكذب هذا الخلق كله؟ » وكذلك أنا مع نفسي لا يعقل عندي أن تكون هي وحدها على صواب، وكل هذه الملايين من النفوس مخطئة أو كاذبة أو مبالغة.

ولا أنكر أن نفسي كانت تتحرك أحيانًا، فأشجعها مسرورًا، وأستحثها فرحًا بيقظتها بعد طول السبات، ولكن أقصى ما جربت حين تفتح النفس عينيها على ما حولها أن يخفق القلب خفقات تصعد به إلى حلقي من فرط شدتها؛ فأفيق وتعود فتهوي به إلى قريب من حذائي، كأنما هذا ليس قلبًا وإنما ركب لي الله سبحانه في مكانه لعبة من لعب « اليويو » التي شاعت في الزمان الأخير، وأحيانًا أشعر بأن حولي فراغًا وأحس شيئًا من اللهفة وقليلًا من الشوق، ولكنه شوق هادئ ولهفة محتملة لا تثقل على النفس ولا يشقى بها القلب ولا يَسْوَدُّ من جرائها العيش، وشبيه بذلك أن يشتهي الإنسان أن يرى شريطًا من أشرطة السينما سمع عنه ثناءً أو أن يشتاق أن يطوف حول الأرض أو يشاهد معرضًا كبيرًا في بلد ناءٍ ولا أظن أن هذا يعد حبًا بالمعنى القديم أو الحديث.

وللسامع العذر إذا تساءل: كيف إذن كنت تقول الشعر في شبابك، وتذكر فيه الحب ولواعجه وصباباته، وما تزعم أنك كنت تعانيه من السهد والضنى أو تريقه من الدموع إلى آخر ذلك؟ والسؤال طبيعي ولكن الجواب عنه حاضر، ولولا عادة الصدق التي اكتسبتها في الأيام الأخيرة لعَزّ الجواب. والجواب يعرفه القراء فقد سقته في فصل سابق عن الحب نشرته لي « الرسالة » وخلاصته أني أوحيت الحب إلى نفسي.

ومن الجرأة أن أزعم أن الناس كلهم كذلك، ولكني أقول إن نشوة الحب تطول عند الناس بفضل الإيحاء المستفاد من تأثير الجماعة والعُرف، ولو خلت الكتب ممَّا نقرأه في وصف الحب وأثره في النفس، وألف المرء أن يرى الناس يحبون حبًا لا يخرج بالنفس عن الاتزان؛ لصار الحب هادئًا فاترًا كالصداقة. وأحسب أن الفرق بيني وبين غيري ليس هو أني شاذ وهم طبيعيون. بل أني تأثرت بإيحاء الجماعة وإيحاء الكتب، وأنا عارف بذلك مدرك له متفطن لحقيقته، وأن الأكثرين يتأثرون على هذا النحو تمامًا، ولكنهم لا يدركون أن في الأمر إيحاء ولا يفطنون للحقيقة فيه، والحياة تقوم - كما لا أحتاج أن أبين- على الإيحاء، وكل امرئ يوحي إلى كل امرىء آخر ويستوحي منه، بل نحن نستوحي الأشياء كما نتلقى الإيحاء من الناس.

ويخيل إليّ أن الحب اسمه غلط؛ فإنه يبدو لي أن هذه العاطفة التي نسميها الحب خالية في الحقيقة من الحب، والعلاقة فيها بين الجنسين ليست علاقة مَوَدّة وهذا كلام قد يبدو متناقضًا ولكني أظنه صحيحًا؛ ذلك أن الحب ضرب من الجوع ولا تقولوا إنه جوع معنوي فإن هذا يكون تخريفًا؛ إذ ليس ثمّ فيما يتعلق بالإنسان أو الحياة شيء معنوي. والإنسان مادة وكل ما في الحياة من المادة وإلى المادة فلندع هذه الخيالات ولنجتزئ بالحقائق؛ فإن أرضها صلبة متينة لا تسوخ فيها الرجل والمرء يجوع فيشتهي الطعام أي يطلبه، لا لأنه يحب الطعام في ذاته، ولا لأن بينه وبين ما يأكل مودة، بل ليسد الحاجة التي يشعر بها ويقضي الرغبة التي تلح به ولا يستطيع أن يهدئها بغير الأكل، وكذلك يجوع جوعًا من ضرب آخر، جوعًا يطلب به إرضاء الرغبة الطبيعة في النسل إطاعةً لغريزة حفظ النوع، كما يطلب بالأكل

إطاعة لغريزة المحافظة على الذات. وكما لا يقال إن بين الآكل والمأكول مودة كذلك لا ينبغي أن يقال إن بين المحبين مودة، إنما تكون العلاقة بينهما قائمة على الرغبة في الالتهام أو الاستحواز إطاعةً للغريزة لا عن مودة. والحبيبان أشبه بالمتقاتلين المتبارزين منهما بالصديقين المتوادين؛ لأن مطلب كل منهما الاستيلاء والغلبة، وهما لا يستعملان سلاحًا ولا يحدثان جراحًا، ولكن الواقع أن القُبَلَ والعناق والضم وغير هذا وذاك مما يكون بين المحبين، كل ذلك ليس إلاَّ وسائل للتليين بغية التغلب.

وقد استعمل الشعراء ألفاظًا كثيرة كانوا فيها صادقين من حيث لايشعرون فذكروا في مواقف الحب وحالاته المختلفة المتعددة السيف والجراح والأكباد القريحة والقلوب المفجوعة والنفوس الكليمة والسهام وما إلى ذلك، فأشاروا إلى حقيقة العلاقة بين الحبيبين من حيث يحسون بها بالفطرة ولا يدركونها بالعقل. والحقيقة هي أن الحب حرب واقتتال وفتك، وغايته -وهي النسل- تنطوي على تعرض للتضحية الكبرى على الأقل من جانب المرأة، وسبيله الإخضاع.

فالمرأة تحاول إخضاع الرجل ليتسنى لها بذلك أن تجيء بالنسل الذي جعلتها الطبيعة أداة له، والرجل يحاول إخضاع المرأة ليتسنى له أن يجعلها تجيئه بالنسل الذي يطلبه بغريزته، والحال بينهما دائر أبدًا على الكفاح. وفي كل شعر صادق قديم أو حديث - لمحات عديدة تدل على التفطن إلى هذه الحقيقة ولو من غير إدراك تام صحيح جلي لها.

والحب يتخذ الصورة التي يؤدي إليها التفاعل بين عاملين: الأول وهو الدافع الغريزي للإنسان، والثاني هو مقاومة الجماعة، وهي مقاومة مرجعها إلى العُرف والدين

وما يجري هذا المجرى. وإلى تفاعل هذين العاملين وما ينتجانه فيما بينهما من الأثر ترجع الصور الشائعة للحب بين الجماعة. وقد كان التحرج شديدًا في الجيل الماضي من ذكر الحب والاعتراف به أو المجاهرة به؛ لأن التقاليد كانت صارمة وكان لها معين من الدين لا يُستهان به. وكانت الجماعة تنزع إلى الاحتشام وكانت قاعدة الحياة من هذه الناحية المثل المشهور: « إذا بُلِيتُم فاستتروا » فكانت معاقرة الخمر على قارعة الطريق ممنوعة لا بحكم القانون بل بقضاء العُرف، وكان الشبان مثلاً يستحيون أن يجلسوا في القهَوات. وكان النساء يتحجبن ويحرصن على ستر زينتهن، ولم يكن اتصال شاب بفتاة من الهينات. ثم جاءت الحرب فرجت الدنيا وزلزلت قواعد الحياة فيها، وانتشر التعليم، وشاع الاطلاع على الآراء الجديدة في الأمور الجنسية، وهدمت الهيئة القومية المصرية حواجز كثيرة وفي جملتها ما كان يفصل بين الجنسين ويفرق بينهما، وصار الناس — شيئًا فشيئًا — يلهجون بذكر الحب ويتناولونه في مجالسهم وفي كتاباتهم تناوُلاً هو أقرب ما يكون إلى البحث العلمي. ولم يعد الشبان - بسبب نشأتهم والجو الجديد المحيط بهم ينظرون إلى الحب وما يتعلق به كما كان آباؤهم يفعلون أو يرون في الأمر موجبًا للحماسة أو داعيًا للخجل أو باعثًا على الاستحياء. وجاء التطور الاجتماعي ولا سيما فيما يتعلق بإمكان ضبط النسل هادمًا لحاجز منيع بين الرجل والمرأة.

وفي الأمثال إن الشجرة تعرف من ثمارها، فإذا لم تكن ثَمّ ثمرة فأين الشجرة؟ وضعف العرف وتفككت قيوده وحصل التمرد عليه في سبيل الحرية كما حصل التمرد على كل قيد آخر.

ومن أخطار الحرية في بادئ الأمر أن الناس يطلبون الحقوق وينسون الواجبات التي تقابل الحقوق، والتوازن لا يعود إلا ببطء وبعد التجارب الطويلة والمعاناة المرة والدروس العملية الأليمة؛ وبذلك فقد الحب الهالة التي كانت حوله وسُلِبَ القداسة القديمة، وصار على الأيام أمرًا عاديًا، وهوى إلى مرتبة الرقص والألعاب الرياضية؛ لأن وطأة العُرف والتقاليد ضعفت وخفت جدًا حتى ليمكن أن يقال إنها غير محسوسة في الأغلب والأعم، وفي مثل هذه الأحوال التي يعظم فيها الترخُّص والتسامح يندر الحب القوي العميق الطويل العمر، وقد يكون هذا الحال هو بعض السر في ركود الشعر إلى حد كبير في هذه الفترة من حياتنا الأدبية.

obeikandl.com

معاملة الناس

نشر في مجلة «الرسالة» بتاريخ سبتمبر ١٩٣٧

لو أني صدقت ما حدثني به شيوخ الجيل الماضي الذين هم في منزلة آبائنا وأعمامنا، وما رووه لي في وصف حياتهم المنقرضة ومعاملاتهم وعلاقاتهم، لكنت حريًا أن أعتقد أن ذاك الجيل الذي انقضى كان أفضل وكان حظه من الرجولة أعظم، ونصيبه من البساطة التي يستقيم بها النظر أوفر وأجزل؛ فقد كان الفقر لا يعيب أحدًا في ذلك الزمان، ولا يغري الصديق بالفرار من صديقه أو اجتنابه وكان حسن الأدب والتواضع ولين الجانب لا يعرض المرء للاستخفاف أو قلة المبالاة به، وكان للعلم شأنه وكرامته، وكانت المعاملات تقوم على الصدق والثقة ولا تحتاج إلى الصكوك وما إليها، وكان الصغير يوقِّر الكبير، ولا يغمط الكبير فضل الصغير أو يبخسه حقه، إلى آخر ذلك ممَّا لا حاجة إلى التقصي فيه. وقد أدركت بعض ذلك؛ ففي وسعي أن أطمئن إلى الصدق في سائره، فمن ذلك أنه بعد وفاة أبي بشهور ثقيلة، دَقّ علينا الباب رجل من العلماء كان زميلًا لأبي، وقال إن «الأفندي» – يعني والدي فقد اتخذ زي الأفندية في آخر زمانه – ترك معه قُبَيْلَ وفاته مبلغًا من المال، وإنه لا علم لأحد بذلك، وإنه يخشى أن يزوره الأجل، ودفع إلينا المال ومضى مرتاح الضمير، ولا أدري ما شأن غيري، ولكن الذي أدريه أنه لو ائتمنني أحد على مال له لكان حقيقًا أن ييأس من رده!

وقد وجدت بالتجربة أنه لا كرامة لمن لا مال له، وأن صاحب المال – وإن كان قد جمعه بشَرِّ الوسائل وأرذلها وأسفلها – قد يغتابه الناس ويبسطون فيه ألسنتهم، ولكنهم لا يلقونه بغير الحفاوة ولا يبدون له غير التعظيم والتوقير، وأن من

شاء أن يضمن إكبار الناس له فليشعرهم بالاستغناء عنهم. وأن الناس ينزلونك حيث أنزلت نفسك، ولا يخطر لهم أن يرفعوك عنه. فإذا كنت معهم عَفَّ اللسان مكفوف السلاطة مأمون الغضب، لم يهابوك ولم يبالوك. ولم يتقوا أن يسيئوا إليك وإن كانوا يرون منك أنك تكره أن تسيء إلى نملة. وقد يظهرون لك الاحترام ولكنهم يعدون ذلك فضلًا منهم وإيثارًا للصنع الجميل. لا حقًا لك عليهم. أما إذا كانوا يعرفون أن أدبك لا يمنعك أن تهيج بهم وأن لِينَكَ قد ينقلب صلابة وعنفًا، ورقَّة ملمسك خليقة أن تحور شوكًا حادًا كشوك القنفذ. إذا خطر لهم أن يجاوزوا معك الحدود التي ترسمها لهم في علاقتك بهم، وتفرضها عليهم. فأيقِنْ أنهم لا يكونون معك في حال من الأحوال إلاَّ على ما تحب وترضى، وقد يسخطون عليك في سريرتهم ويكتمونك ما ينطوون عليه لك من المقت والحقد. ولكن هذا لا قيمة له؛ فإن الخوف من عصفك بهم يظل يقيك أذاهم. وماذا يضيرك أن يجدوا ويضطغنوا إذا كانوا لا يجرءون أن يكشفوا لك عن هذه الصفحة المستورة؟ وإنك لتعلم أنهم ينافقون ويُبدون غير ما يبطنون. ولكن الحيلة في ذلك قليلة. والشأن شأنهم لا شأنك. وعلى أنه ما داعي الغيظ والنقمة؟ وما موجب الكراهية والمقت؟ وما الحاجة إلى النفاق؟ إنّ كل ما تبغيه منهم أن يجتنبوا الإساءة إليك كما تجتنبها إليهم. فإذا بدأوك فإنهم الظالمون. والشاعر القديم يقول:

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمَك   وأن نكفّ الأذى عنكم وتؤذونا!

فإذا كانوا يأبون إلا أن ينتحلوا الحق في الإساءة بلا مسوغ. فذنبهم على جنبهم، وتالله ما أسرع ما يرتد الناس إلى الواجب وحسن الأدب إذا رأوا منك تمردًا على سوء الخلق وقلة الحياء! كان كبيرٌ من الكبراء يدخل حيث أكون. فيمر

بي وكأني قطعة أثاث. وكنت ألقاه كثيرًا، فحملت هذا في أول الأمر على الذهول أو نحوه. ولكنه كرّر وباخ وتبينت فيه سخافة الكبرياء والنفخة الكذابة، فقلت: أكيل له بصاعه، وصرت أتعمد أن أدخل عليه وهو مع الناس فأحييهم وأهمله، وأتخطاه بيدي وعيني كأنه ليس هناك. ولم يكن له غير هذه النفخة، فلما خرقت القربة المنفوخة، لم يبقَ شيء، فلم يطق صبرًا، وأقبل يومًا فهممت أن أشيح بوجهي عنه فإذا هو يطوقني بذراعيه!

وليست هذه المبادئ التي يُلقنها التلاميذ في المدارس، ولكنها هي المبادئ التي أُلقنها ابني، وأحرص على أن يفهمها ويعمل بها، وقليل من رياضة النفس عليها تكفيه، لا مثلي، فقد نشأت على غير ذلك واعتدت خلافه، فخيب الناس والدنيا أملي في كل ناحية، وأحدثوا لي رجّات نفسية أتلفت أعصابي. وكنت أعتقد مثلًا أن في وسعي أن أسير في الحياة من غير أن أسيء إلى أحد أو أخشى أن يسيء إليّ أحد، وأن عليّ أن أعطي الناس حقوقهم في صراحة وبإخلاص، وأن لي أن أثق أن سيعطيني الناس حقي ولا يقصرون في أدائه إليّ كاملاً. فإذا الأمر على خلاف ذلك ونقيضه. أنا أكف أذاي عن الناس، ولكنهم هم لا يعنون بمثل ذلك، حتى لصرت مضطرًا أن أحتال لاتقاء أذى الناس، وأنا أؤدي للغير حقه غير منقوص، ولا أبخل عليه بالإسراف في الأداء، ولكنه هو لا يخطر له أن لي حقًا يؤدّى، أو كرامة تُحفظ لا لسبب إلاّ أني لا أَتَقَحّمُ على الناس ولا أركبهم بالغطرسة، ولا ألح عليهم ببيان ما يجب لي؛ ومن هنا تغير رأيي في كل ما نشأت عليه، وأدركت أنه لا يوافق هذا الزمان، وتغير سلوكي مع الناس، واختلفت سيرتي وتربيتي لأبنائي. وما زلت أجنب أن أبدأ بعدوان، فما لهذا معني، ولكني لا أتردد في دفع الأذى، ولهذا مزيته، وتلك أن ترغم الناس على أن يكونوا خيّرين!

الدستور ورجل الشارع

نشر في جريدة السياسة الأسبوعية بتاريخ ديسمبر ١٩٣٠

الفرق بين الحكم الدستوري وغيره فيما يُحس «رجل الشارع» - كما يقول الإنجليز- هو أن الأول (أي الحكم الدستوري) يفيده الشعور بالرضى والاطمئنان على حرياته وحقوقه، والقدرة على تغيير ما لا يروقه، وقد يكون الواقع خلاف ذلك وربما جاء الحكم الفردي أحيانًا أصلح وكان أبعث على الارتياح، ولكنه -بالغًا ما بلغ من الصلاح- يسلب رجل الشارع هذا الشعور ويمنع نشوءه في نفسه؛ ذلك أنه يقوم على إرادة الفرد لا على إرادة الجماعة في أي مظهر من مظاهرها، فعمل الفرد من الأمة هو أن يسمع ويطيع، من غير أن يكون له اشتراك مباشر أو غير مباشر فيما يُلقى إليه من الأمر؛ وهو لذلك لا يستطيع أن يشعر أنه آمن على ما يتمتع به من الحريات أو يستعمل من الحقوق، وكل ما في يده من ذلك هو عرضة لأن يُسلبه وسبيله أن يحتمل، أو أن يتوسل ويتضرع، أو أن يتمرد ويجنح إلى الانتقاض وهو يحتمل ما يسخطه ويتصبر ويتشدد، ويشقى صبره فيشكو، حتى إذا استنفدت الحوادث مجلوده خرج عن طوره وأعرض عن ذكر العواقب وثار، وهذا شر ما في الحكم الفردي، أو أي طراز من الحكم لا يتوقى هذه المغبة بأن يدع للشعب متنفسًا، ويترك له سبيلاً مشروعة يمضي منها إلى غايته من غير أن يشعر بوجوب اللجوء إلى العنف والثورة.

وليس كذلك النظام الدستوري؛ فقد يتفق أن يتولاه من يسيئون استعماله؛ فيَفشو الظلمُ في عهدهم وتثقل وطأة الحكم في ظلمهم على الناس، ويعظم الخطب ويشتد الكرب وتضيع المصالح وتُهمل المرافق، وتُنتهك الحريات وتُغصب الحقوق؛

ولكن الشعب أو رجل الشارع يبقى له شعوره الذي ينقذ الموقف، وهذا الشعور هو أن في وسعه أن يغير هذا الحال، وأن يُنَحِّيَ عن الحكم من لا يحسنونه، وأن يأبى عليهم الثقة التي مكنتْهم من ولاية الأمر؛ وذلك بإيثار غيرهم في الانتخابات التالية حتى يجيء يومها، فليس ليل الظلم عليه سرمدًا، ولا الكرب الذي يعانيه مخلدًا، وللأمل مضطرب واسع، وللسعي طريق معبد، وموعده يوم الانتخاب، وهو مهما بعُد قريب.

وصحيح أن رجل الشارع لا يتولى الحكم ولا يشترك فيه، وأن رأيه لا يقيد ممثليه، ولا نكران أن الأمور تجري من غير أن يَرجع إليه الذين يقطعون فيها برأي وغير مردود أن الأمر يخرج من كفيه بعد أن يُبدي رأيه يوم الانتخاب، وأنه لا يملك بعد ذلك أن يكبح المسيء أو يرد المخطئ إلى الصواب، ولكن له مع ذلك عزاءً مزدوجًا؛ هو أن حرياته وحقوقه وديعة في يد القضاء يحميها ويرد عنها من يريدها بالسوء، ثم إن المصير على كل حال إلى رجل الشارع، والأعوام تمر والأيام تنقضي ثم يعود الأمر إليه ويحتكم المتنافسون على الحكم إلى إرادته واختياره، وفي مقدوره حينذاك أن يُشيح بوجهه عن الذين أساءوا السيرة وأن يُؤْثِر عليهم غيرهم ممن يكون هو أحسن بهم ظنًا.

وصحيح كذلك أن رجل الشارع ليس بالأخصائي في الفقه الدستوري، وأنه لا يستطيع أن يزن الدستور من هذه الناحية وزنًا دقيقًا محكمًا لا يغل شعيرة، ولكن غير صحيح أنه عاجز عن تكوين فكرة مجملة عن الدستور وروحه؛ فإن في وسعه -وإن أعياه أن يورد النصوص ويستشهد بالمبادئ والأحكام - أن يَخرج لنفسه برأي صحيح في جملته عن روح أي دستور، وليس يخفى عليه فرق ما بين دستورين: واحد يُضيق سلطة الأمة وآخر يُوسعها، أو واحد يجعلها هي المرجع في الظاهر، وثانٍ

يجعلها كذلك في الحقيقة. وليس عجزه عن الجدل الفقهي بمانع أن يكون ما استقر في روعه صحيحًا على العموم، ومن الجهل بالحقائق أن يتصور الإنسان أن رجل الشارع مخلوق لا يُعنى إلا بطعامه وشرابه. ولا يتقبل ذهنه ما يعدو حاجاته المتصلة بوجوده الحيواني؛ فقد يكون بُعده عن البحوث الفقهية المعقدة أعوَن له على صحة التفكير واستقامته. وأضمن لخلو تفكيره من الاضطراب الذي يؤدي إليه تشعب البحث وتعارض الآراء، وأدْعى إلى أن تكون النظرة مستقيمة لا عوج فيها ورجل الشارع ينظر إلى الحقائق ويقيس إليها كل شيء. ولا يتعلق بالكلام النظري؛ لأن حياته عملية، وكذلك أساليبه في معالجة الأمور وفي فهم الأشياء. ومن هنا كان حكمه على الأمور حقيقًا بأن يكون أصدق؛ لأنه يحكم عليها وهو مواجه للحقائق الواقعة غير مغالطٍ نفسَه فيها، أو ضال بينها كما يضل الواسعُ العلمِ العميقُ التفكيرِ وإن كان جمهور الناس على خلاف هذا الرأي. وكانت العقيدة الشائعة أنه كلما كان الإنسان أعلم وأكثر تفكيرًا. كان أسَدّ لذلك نظرًا وأهدى سبيلاً ويحسبنا في دفع هذا الوهم الذي يركب الناس أن نقول إن العامة كثيرًا ما يكونون أفهم للحياة وأشد توفيقًا في الاهتداء إلى حقائقها. ولكل أمة أمثالها الشائعة الدائرة على الألسن. وهذه الأمثال كنز عظيم. من هم الذين يضعونها ويفرغونها في القوالب التي تجعلها أسْيَر وأذيع وأسهل في الترديد؟ ليسوا هم العلماء والمفكرين وإنما هم العامة والأميون. وعامّةُ كل أمة هم الذين يختزلون حكمة الحياة ويلخصون تجارب القرون، ويختصرون الحقائق الخالدة في ألفاظ قليلة تذهب مثلاً وليس على من شاء إلاَّ أن يحضر إلى ذهنه طائفة من أمثال العامة. ويتدبرها ليرى إلى أي عمق يصل العامة في التعبير عن حقائق الحياة وفي اختزال حكمة التجارب

وكون هذه الأمثال الحكيمة العميقة تجري على ألسنتهم وتصدر عنهم بلا عمد لا ينفي أن الذهن الذي ابتدعها وأحسن العبارة عنها قد شُغل بها، وأنها هي قد دارت فيه وظلت تتكون حتى انتهت إلى البروز في صورة تامة يصح إلقاؤها إلى الناس، ويستطيع الناس أن يتلقفوها بسهولة.

فكون رجل الشارع أخصائيًا في الفقه الدستوري ليس معناه أنه لا يفهم ولا يدرك الأشياء على وجهها الصحيح، ومن ظن غير ذلك فقد خدع نفسه وغشها؛ ومن هنا هذا الامتعاض العام من الدستور الجديد، وهو امتعاض تستغربه الوزارة الحاضرة وتظنه راجعًا إلى فعل خصومها، وتتوهم أن رجل الشارع إذا تُرك وشأنه وبقي بمنجى من تأثير هؤلاء الخصوم، خليق أن يرضى آخر الأمر عما يتسخط الآن من هذا الدستور، ولا شك أن خصوم الوزارة لا يكتمون رأيهم في الدستور الجديد ولا يحجمون عن بث نقدهم له وإفشاء اعتراضهم عليه، ولكنه لا شك كذلك أن الامتعاض العام راجع في مَرَدِّ أمره إلى ما استخلصه الناس من روح هذا الدستور، وانتهوا إلى الاعتقاد فيه من غير أن يكون لخصوم الوزارة أثر يذكر في إحداث هذا الشعور، والقول بغير ذلك لا يكون إلا عن جهل لروح الجماعات وقلة فهم لطبيعتها وسوء رأي فيها.

ورجل الشارع لا يجد أنه يفيد من هذا الدستور الجديد ذلك الشعور الذي أسلفنا الكلام عليه في مستهل هذا المقال، وقد يشق عليه أن يبيِّن علة بنص الأحكام التي اشتمل عليها الدستور، ولكن هذا لا قيمة له؛ لأنه يَعرف - وحسبه هذا أن الدستور لا يجعل الأمر إليه حتى يوم الانتخاب، وأنه لم يعد ذلك المرجع الأخير الذي كانه بمقتضى الدستور الذي ألغته الوزارة، فليس في وسعه أن يُحس برضًى

أو يشعر باطمئنان على حرياته أو حقوقه، أو أن يتعزى عما يسخطه بأن في مقدوره حين يكر المختلفون إلى الاحتكام إلى إرادته، أن يجعل لهذه الإرادة المظهر الذي يُؤْثره، بنقل ثقته من فريق إلى فريق. وإذا عدم رجل الشارع هذا الشعور فماذا يبقى له؟ وأي فرق يكون عنده بين نظام دستوري وآخر غير دستوري؟

ورجل الشارع كتلة بطيئة ولكنها لهذا وطيدة، وكذلك الحق. وقد يستخف بها الذين يحسبون أنهم من طراز المتفوقين، ولكنهم لا يستطيعون أن يتقدموا خطوة من غير هذه الكتلة، وليس المهم -آخر الأمر- ما يفعله أو يفكر فيه المتفوقون، بل ما تتقبله وترضى عنه وتأخذ به هذه الكتلة.

obeikandl.com

العراق بين ماضيه وحاضره

نشر في مجلة : الكتاب بتاريخ ديسمبر ١٩٤٥

سمعت صديقًا عراقيًا أديبًا يقول: إن العراق لا يقر له قرار، وإنه أبدًا في قلق وتحفز، وليس من شأن ذلك أن يكفل له اطراد التقدم.

وضحك وقال: «لعلك لم تنسَ ما قال الحجاج».

يشير إلى كلمته المشهورة: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق والله ... إلخ.

فقلت له: إن ما زعمه الحجاج غير صحيح، ولست أحتاج أن أقضي في العراق عمري لأعرف ذلك، فإن به من مصر مشابه كثيرة، والحجاج وأمثاله من الطغاة هم الذين يجنون على الأمم، ويورثونها ما تسميه أخلاق الشقاق والنفاق التي تعيبها.

والحقيقة أنه لم يظلم العراق أحد كما ظلمه الحجاج بهذه الكلمة، وأي شيء أظلم من أن يصبح العراق متهمًا بأنه - دون أمم الأرض - بلد النفاق والشقاق؟ أهو بدع في الخلق؟ أيدخل في عقل عاقل أن تتميز أمة من الأمم وتنفرد بهذه الأخلاق؟

وعندي أنه يجب التفريق بين الطباع الأصلية، والأخلاق المكتسبة، وينبغي أن يسأل الإنسان نفسه: لماذا ينافق المرء؟

وماذا ينزع به إلى الشقاق؟

وأحسب أن الجواب أنه ينافق لأنه يخاف ولا يطمئن إلى عواقب الصدق والصراحة، ولا يرى أنه في أمان من صروف الحذر، فهو يلقي نفسه -مضطرًا لاتقاء الشر أو اجتلاب الخير- إلى المصانعة والتقية.

وكل امرئ في هذه الدنيا يحتاج إلى قدر من المصانعة؛ لأنه لا يسعه أن يكون صادقًا صريحًا في كل حال، وما أظن إلا أن الدنيا تفسد، والحياة تعود وهي مما لا يطاق لو كان كل إنسان يُظهِر ما يبطن، ولا يجري لسانه إلاَّ بما يدور في نفسه ولكن هذا القدر من المصانعة الذي لا تطيب الحياة إلاَّ به، ولا تستقيم أحوال الناس بغيره شيء، والنفاق الذي تضطر إليه الأمة شيء آخر، مختلف جدًا، فالأول ليس أكثر من وسيلة تصفو بها العلاقات بين الناس من الأكدار، وأما الثاني فأثر من آثار الاستبداد، وكل أمة إذا طال عهدها بالحكم الفردي الاستبدادي تلقي نفسها مكرهة على اصطناع النفاق وتوخيه، حتى يصبح ذلك وكأنه طبيعة فيها أو مما فطرت عليه، وليس الأمر كذلك، فإن بضعة أجيال من الحكم الصالح القائم على الحرية وتحري العدل وإيتاء الناس حقوقهم، والمساواة بينهم، تغني الأمة عن ضرورة النفاق.

والنفاق وليد الخوف، ولا خوف في ظل العدل والمساواة والحرية، وقد ابتُلِيت مصر، كما ابتُلِي العراق، بأدهار طويلة من الحكم الاستبدادي الغاشم، فأورثهما الرغبة في إيثار العافية، وهو ما نسميه النفاق، وما هو إلا مظهر للمحافظة على الذات، أو الدفاع عن النفس؛ لأنه إذا كان المرء غير آمن على نفسه أو ماله، أو غير واثق من العدل، أو غير مطمئن إلى احترام الحقوق، فما حيلته إلا أن يصانع ويداري ويماذق ليتحفظ بمصلحته، أو يجتنب الأذى ويتقي السوء ويأمن الظلم والعسف؟

والمرء ينزع إلى الشقاق إذا لم يرضَ عن حاله، ومن ذا الذي يرى العدل قائمًا والحرية مكفولة، والحقوق مرعية، وفرص السعي والنجاح في كل ميدان متاحة

لذوي المواهب، ثم يذهب يتسخط ويثير الشقاق ويجنح إلى الفتنة؟ لا أحد سوى الذين مُنوا بالعجز أو أسرفوا في الطمع، واشتطوا في طلب ما ليس لهم بحق، وهؤلاء لا يعتدُّ بهم ولا تأثير لهم.

ومهما يبلغ من عدل المستبد المستأثر بالحكم، فإن الأمر فيما يمس الشعب يكون أشبه بالمقامرة، فهو موكول إلى الحظ لا إلى القانون والحق، ومن هنا قلت لصديقي العراقي: إن الحجاج وأمثاله من الطغاة البغاة هم الذين يحوجون الأمم إلى أخلاق النفاق، ويضطرونها أن تنزع إلى الشقاق، ومن هنا أيضًا كانت هذه أخلاق ضرورة، تزول بزوال دواعيها وبواعثها، أيْ متى حل العدل محل الظلم، وقامت الشورى مقام الاستبداد، واطمأن الناس إلى حرياتهم العامة والخاصة، ووثقوا من أن حقوقهم في أمان من العدوان.

فإذا كان في العراق أو مصر نفاق - فإنهما سيان - فهذه علته، أو شقاق فداعيه ما أسلفنا عليه القول، وقد صار العراق - كمصر - دولة حرة مستقرة، ذات دستور وبرلمان، ولكن الأمر لم يستقم بعدُ، لا هنا ولا هناك، وهو يحتاج إلى زمن غير قصير حتى تستوفي الأمة حظها من التعليم الصالح والتربية الاستقلالية القويمة وتتدرب على استعمال حقوقها، وتدرك قيمة هذه الحقوق فتحرص عليها، وتضن بها أن يعبث بها عابث، أو يغالطها في حقيقتها مغالط، وحينئذٍ يحل الأمن محل الخوف، والعلم محل الجهل، فتصبح الثقة والاطمئنان مدار السلوك.

ويقول صديقي العراقي: إن العراق قَلِق متحفز، فهو لذلك لا يستقر، والظواهر تؤيده، فإن الوزارات تقوم وتسقط بسرعة، ولا تكاد تبقى في الحكم زمنًا يكفي للقيام بأعمال الإصلاح، وهذا أيضًا حال مصر، وكل ما بينهما من فرق أن الجيش

في العراق تدخّل غير مرة لإسقاط وزارة وإقامة وزارة. وقد سمعت غير واحد من إخواني العراقيين يقول: إن الشعب لا يطيق أن يطول عمر وزارة، فإذا بقيت سنة بدأ يتململ ويضجر، ويظهر السخط ويطلب تغيير الحال.

ولست أستغرب هذا أو أرى فيه شذوذًا أو خروجًا عن حد الصحة في الأمة فإن تعليله سهل، ذلك أن الأمة إذا فازت بالاستقلال بعد معاناة عهد طويل من حكم لم يكن لها فيه رأي أو قول أو شأن، تشتد رغبتها في تعويض ما فاتها وإدراك مَن سبقها، وعلى قدر تنبهها ويقظتها يكون إلحاح هذه الرغبة وقوتها، فنراها بعد أن تستيقظ نفوسها تأسف على الماضي الذي ضاع وهي في غفلة من جراء الجهل والاستبداد بها، وتحس بحاجة إلى الإسراع في السير لتصل إلى حيث تتطلع، وتبلغ ما تعتقد أنها جديرة به من منازل الكرامة والعزة والرقي، وتقيس حالها إلى حال غيرها، وتوازن بين مرتبتها والمراتب التي ارتقى إليها سواها، فتلفي نفسها متخلفة عن ركب الأمم، فتستعجل، وتستبطئ كل عامل مصلح، مهما بلغ من اجتهاده لها وابتغائه لخيرها، لأن كل ما ينجزه من الإصلاح يبدو لها قليلاً يسيرًا بالقياس إلى ما تنشد، فتتململ وتتبرم، ولا تحس أنها راضية، لأن العمل دون الأمل، ولأنها تنظر بعيونها فترى الأمم الأخرى تُغِذُّ السير بل تطير، على حين تحس هي أنها تمشي بخطوات السلحفاة، وقد لا يكون هناك بطء حقيقي، ولكنها تشعر بالبطء وتستثقله، لأن آمالها كبار، ونظرتها إلى الهدف البعيد والغاية القصوى، ولأنها تنسى وهي تتطلع إلى ما تنشد، قلةَ الوسائل عندها، وتوفُرها عند سواها من الأمم التي سبقتها في الميدان، وتغضي عن كونها حديثة عهد بتولي أمورها، وأن الأمم الأخرى تتولى جميع أمورها بنفسها منذ قرون.

وهذه هي الحال في العراق ومصر على السواء، ومن هنا كان السخط الذي لا ينفك يظهر، والتذمر من بطء السير.

على أن هناك علة أخرى مشتركة، بين مصر والعراق، ذلك أن الأمر في البلدين إلى الأمتين في الظاهر، أما الحقيقة فهي أن الأجنبي لا يزال يملك من الأمر كثيرًا ولأصابعه الظاهرة أو الخفية أثر فيما يكون، فالأمر ليس كله إلى الأمة، وإن كان هذا هو المفروض، ومهما أخفى الأجنبي أصابعه وسترها فإن الأمة لا يخفى عليها أن الأصابع تلعب من وراء الستار، إذا كانت لا تلعب جهرة، ومن الغفلة الشديدة أن يتوهم متوهم - أجنبيًا كان أو مواطنًا - أن الأمة لا تفطن إلى لعب الأصابع الأجنبية.

ثم إننا لطول عهدنا بالاستبداد -في مصر والعراق على السواء -أصبحنا نميل إلى سوء الظن، وهذا بعض ما يجنيه الاستبداد على الأمم، فنحن لا نصدق أن الأجنبي قد كُفَّت يده عن العبث، وأنه نفضها من شئوننا كل النفض، وكل عمل نراه نروح نبحث عن أثر الأجنبي فيه، لأننا فقدنا الثقة من زمان طويل بحكّامنا أي من تلك الأيام التي كانوا يتولون فيها أمورنا على الرغم منا، وقد نكون مخطئين في قياس الحاضر على الماضي، بل نحن مخطئون في الأكثر والأغلب، ولكن الإنسان إنسان، وهو لا يستطيع أن يتخلص بسهولة مما ورثه في الماضي الطويل، فله العذر إذا أساء الظن، وليس مما يعين على إحسان الظن أن يكون للأجنبي قوة حربية في بلادنا بالغة ما بلغت من الضآلة أو قلة الكفاية، ومهما قيل في صفة هذه القوة وأنه ليست لها صبغة الاحتلال، فهي قوة أجنبية، ووجودها معناه ومؤداه التلويح

بها للضغط، فلا اطمئنان مع وجودها إلى حرية التصرف، وإمكان إهمالها كأنها ليست هناك.

والعراق ومصر على حق في سوء ظنهما بما يؤدي إليه وجود القوة الأجنبية في البلدين، واعتقادهما أنهما من عوائق الرقي، فهي من بواعث الضجر والسخط وعدم الاستقرار.

وفي العراق ما ليس في مصر مثله، مثال ذلك: أنه قريب من الاتحاد السوفيتي وأن فيه جماعات غير عربية لا يؤمَن أن تستخدمها الدول المجاورة أو المتصلة به للتآمر على كيانه، فهو لهذا في حيرة غير هينة: يكره أن يكون لبريطانيا مركز في بلاده، مهما بلغ من هوان شأنه وقلة خطره، ولكنه من ناحية أخرى يخشى غير بريطانيا، ويحب أن يطمئن، فيلفي نفسه محتاجًا إلى عون بريطانيا، ويرى الدسائس الأجنبية تحاك، ولو كان قد بلغ من القوة والبأس ما يتطلع إليه لاطمأن إلى قدرته على القضاء عليها بمفرده، دون أن يحتاج إلى معين. ثم إن تعداده قليل وهو على قلة عدده لا يزال في بداية النهضة، فماذا يصنع؟ أيعتمد على بريطانيا؟ إنه لا ثقة له في قرارة نفسه ببريطانيا، وإن كانت ظروفه تحوجه إلى صداقتها، وقلة الثقة مرجعها إلى أن بريطانيا تنتهز الفرص لاستعادة نفوذها القديم بل سيطرتها السابقة، وإذا لم يحرص على صداقة بريطانيا فكيف يأمن جانب الطامعين فيه وفي موارده الطبيعية وخيراته، وفي مركزه الاستراتيجي؟ وهؤلاء الجيران ماذا تراهم يضمرون له؟ وهل يسعه أن يكافح روسيا وبريطانيا في آن واحد؟ إن هذه حيرة مزعجة ولا شك، لأنه يريد - بحقٍ - أن يستقل بأموره استقلالاً تامًا، ولكن بريطانيا -في بلاده - وروسيا على مقربة منه (ودَعْ تركيا وإيران) لا تدعان له

سبيلاً إلى الاطمئنان، أفلا يكون معذورًا إذا سخط وصب نقمته على من يستطيع أن يصبها عليه؟ إن عذره واضح!

ولكن في العراقيين رجولة تبعث على الاحترام بل الإجلال، وستنفعهم هذه الرجولة في الخروج من المأزق السياسية التي زجت ظروفهم بها فيها، وأنا على يقين جازم من هذا؛ لأني عظيم الثقة بهذه الرجولة التي تبينتها فيهم، والتي جاءت الحوادث بالدليل الناهض عليها، وإنها لحسبهم، ومتى كانت الرجولة وافية، فإن لك أن تثق بأن صاحبها لن تنقصه صفة من الصفات الجليلة في مواقف الشدة والحرج.

Openikandl.com

المصريون وروح الفن

نشر في جريدة : البلاغ- بتاريخ ديسمبر ١٩٤٣

كتب إليّ بعضهم يستغرب قولي أو ينكره، إن المصريين مطبوعون على روح الفن، ولا يرى فيما سقته من الشواهد في محاضرتي في موضوع الرأي العام ما يكفي للدلالة على ما ذهبت إليه، فلا بأس من كلمة في هذا تجلو الغامض.

ولا شك أن في بلادنا جهالة فاشية، وأمية منتشرة، غير أن هذا لا قيمة له ولا وزن، فإن كلامنا ليس على الفنون بل على الروح التي تبدو مظاهرها في حياة الأمة، وفي أساليب الكلام، وفي العادات وفي العفو والعمد من العمل والسلوك، وما كان الجهل ليمنع أن تظهر الروح العامة وإن كان قادرًا على طمسها إلى حد ما وعلى الحيلولة دون الاتساع ورحابة الأفق، ودون الانتفاع بالاستعداد المضمر والمواهب الكامنة.

ويجب التفريق بين الأثر الفني في صورة أو قصيدة أو تمثال أو غير ذلك، وبين الروح الفنية، فقد أكون جاهلاً أعرف الكتابة ولا أقدر على القراءة فلا يمنع هذا أن تكون لي روح الشاعر، وأن تظهر شاعريتي الخرساء في أسلوب معيشتي وما أنا مغرى به وفيما أحب وأكره، وما أستظرف وأستثقل، وفي ثيابي وألوانها، وفيما آلفه وأنفر منه، وفي جدي وهزلي، وفي كلامي وإشاراتي ونظراتي واتجاهات نفسي وفي صناعتي والروح التي أقبل بها عليها وما أتوخاه فيها. وقد أكون أكثر الناس علمًا، وأعظمهم إحاطة بالمعارف وأوسعهم تحصيلاً بكل ما يدخل في الوسع اكتسابه، ولا أكون مع هذا خيرًا من كتاب ضخم غليظ يطيب منظره وهو على رَفّه وينفع إذا فتحه قارئ، ولكنه فيما عدا هذا جامد خامد لا حياة فيه ولا حس

ولا إدراك، ولا ذوق ولا خيال، ذلك أن العلم شيء والروح الفنية شيء آخر. والروح يفطر عليها المرء، وقد يقويها التعليم ويقومها ولكنه لا يخلقها، ويجيء بعد ذلك الأداء، وأعني به العبارة عما في النفس بالوسائط الصالحة، وهو مَلَكة واكتساب في آن معًا؛ لأن في كل فن وكل لون من ألوان الأدب مقدارًا من التقليد لا سبيل إلاَّ إليه، لأنه بعض ما يُورث ويجري به عرف الجماعة.

ونحن مثلاً لا نزال وسنظل على الأرجح، ننظم الشعر من البحور التي نظم منها أقدم شعراء العرب، وقد نزيد عليها بحورًا جديدة، ولكن الإضافة لا تمحو القديم، والألفاظ والقوالب التي نستعملها هي التي استعملها مَن لم نعرف ولم نسمع بهم ممن عاشوا في أزمان موغلة في القدم، والمجازات التي نتخذها في كلامنا وكتابتنا قديمة عتيقة، وأكثرنا لا يعرف أصلها ولكنا نفهم المراد منها حين نقرأها أو نسمعها، وهكذا في كل شيء آخر. ولو أن إنسانًا منا استطاع أن يحصي موروثه وجديده، لهاله أن حياته كلها تكاد تكون من القديم وأن الجديد فيها ضئيل، وأنه على الجملة يمكن أن يعد نسخة معادة ممن رحلوا عن الدنيا.

والعلم وحده لا يكفي في فن وأدب، وقلما يعنى إذا لم يؤازره الذوق والموهبة والذوق بمجرده لا يكفي ولا غنى عن التحصيل الذي يوسع الدائرة ويُعِين على الضبط والإحكام.

وفي مصر عشرات من الشعراء لا نسمع بهم، وإنما كانوا مجهولين لأنهم لا يقرءون ولا يكتبون ولا يعرفون الصحف والمطابع، ولو أنشدتهم شعرًا عربيًّا لما فهموا على الأرجح، وهم مع ذلك يقولون شعرًا موزونًا ومقفى أيضًا، في الحقول وفي سهراتهم في الليالي القمرية، وكلما تحركت نفوسهم وجاشت صدورهم ببواعث

الشعر من فرح وحزن وألم، وحب وكره، وحيرة واضطراب إلى آخر ذلك، وهم ينظمون هذا الشعر بلغتهم العامية ولهجاتهم المحلية، كما كان البدو في جزيرة العرب قبل الإسلام وبعده أيضًا ينظمون الشعر باللغة العربية التي كانت لغة الكلام، ويغنون ويضربون على الدف وينفخون في المزمار، وما سمعوا قطُّ بعبده الحامولي أو سيد درويش. وقد سمعت مقطوعات شتى من قصيدة طويلة، نظمها رجل من أقاصي الصعيد هجرته زوجته وفرت مع مَن لا يعرف، فذهب يبحث عنها في كل مكان حتى انتهى إلى بورسعيد واهتدى إليها هناك، فعاد أدراجه وتركها مع من وجدها معه. وفي هذه القصيدة يصف رحلته وما لقي فيها ويسرد ذكرياته، والقليل الذي روي لي منها يسمح لي أن أقول إنني أفضلها- إذا كانت كلها من طبقة ما سمعت -على هومر، وكم من إنسان خرج من جنته كما خرج آدم، وكم من شاعر دفن شعره لأنه لم يجد له راوية.

وقد تلقى المتنبي اللغة من العارفين بها في البادية والمدن المتحضرة، فصار من أعلم الناس بها، وكان هذا بعض ما يتعجبون له منه، ولكن المتنبي شاعر بسليقته؛ لا لأنه واسع العلم باللغة، ولو لم يكن له كل هذا العلم لبقي شاعرًا، ولو كان لم يُرزَق السليقة ولم يُوهب المَلَكة والروح لما عدا أن يكون واحدًا من الرواة الكثيرين، أو ممن يحفظون من اللغة فوق ما يحفظ الأوساط العاديون، لأن العبرة ليست بكثرة المحفوظ ولا بسعة العلم بل بالملكة، ثم بالقدرة على الأداء والذوق فيه، فالجهل لا يمنع أن تظهر الروح الفنية، والعلم يؤازر ويسعف ولكنه لا يخلق.

وقد سقت في محاضرتي مظهرين لروح الفن في مصر: الفكاهة والطرب للغناء فلا أعود إليهما، ولكني أحب أن أنبه إلى ما يبدو من سواد المصريين عند السماع

فإن الإحساسات التي يثيرها الصوت تطغى عليهم وتستغرقهم وتنسيهم الوقار والاحتشام المألوفين، فنرى الرجل الرزين يقوم ويقعد، ويصيح ويزعق بأصوات الاستحسان، ويلح في طلب الإعادة وينشد الري، كأن هذا آخر ما كُتِب له أن يسمع، ولا تراه يقنع بما يلمس ولا ينفذ من نفسه إلى الأعماق.

وهذا من حب الحياة، وكل إنسان في كل أرض يحب الحياة ويتعلق بها ويحرص عليها، ولكن المصريين من أشد الأمم حبًا لها ورغبة في تخليدها، ومن فرط حبهم للحياة عنوا بالموت كما لم تُعنَ به أمة أخرى، ومن فرط حبهم للحياة أحبوا السرور واللذة وأغرقوا في طلب المتعة، وأسرفوا في التماس الشعور بلذة الوجود؛ فلسفتهم محورها هذا، وطبيعتهم راجعة إلى هذا، وخصائصهم في السرور والحزن وفي الشجاعة والجبن، وفي الصبر الذي يكاد يلتبس بالبلادة، وفي الطاعة والاستسلام، وفي التمرد والعصيان، وفي كل حالة من حالاتهم، ترتدُّ إلى فرط حبهم للحياة.

وقد أشرت في محاضرتي إلى إيثار المصريين للارتجال في الغناء، وتفضيل المغني أو العازف القادر على الابتداع والابتكار عفو الساعة والبديهة، وهو يعرف ذلك ويروض نفسه عليه، ولا يستنكره أو يتململ منه، وقد تكون هذه سذاجة ولكنها من روح الحرية التي هي أغلى ما تعتز به روح الفن، ولا أحتاج أن أقول إن الفنون تموت إذا فقدت الحرية، وصحيح أن التزام لحن معين لا ينفي أن الفنان كان حرًا في صوته وابتكاره، ولهذا قلت إن سرور الشعب بأن يرى المغني يتصرف ويذهب في الصوت على هواه من السذاجة، ولكنها سذاجة ترجع إلى حب الحرية، التي لا يقوم فن بغيرها.

ومن شاء فَلْيسأل أي واحد من معارفه أو أقربائه عن « أول » ما يخطر له أن يصنع إذا رُزق مالًا وفيرًا، فإنه خليق أن يسمع منه -إذا آثر الصدق ولم يستحِ، وقبل أن يشاور نفسه -أنه يشتهي أن يبني قصرًا كبيرًا، وأن يقتني السيارات والجياد وأن يؤثث البيت - أو القصر كما يحب أن يسميه - بأفخر الرياش وآنق الأثاث إلى آخر ذلك. أما التفكير في تثمير المال فيجيء بعد ذلك. وهل خرّب بيوت الموسرين منا إلا جريهم مع أول الخاطر الذي تمليه روح الفن المصرية، وإلاّ سحر الخيال الذي يعمِّق ويقوِّي ويضاعف الشعور بالحياة والإحساس بوقعها؟

وحب الفخفخة والعظمة راجع إلى خصائص مصر الفنية. وآثار مصر القديمة تدل على أن المصريين أشد ولعًا بمظاهر الجلال منهم بمظاهر الجمال، ولهذا يؤثرون الكبر والاتساع والضخامة والروعة، أيْ كل ما يكون عظيم الواقع، ويفضلون ذلك على الأناقة والظرف والحلاوة، والقَصْر الضخم عندهم خير من البيت الصغير الأنيق الجميل، والسعة والرحابة والعلو والضخامة آثر وأولى بالإعجاب. ويدعو الرجل إلى بيته ثلاثة أو أربعة، فيصنع لهم طعامًا يكفي عشرين، ويحتفل بعرس فيحسب حساب من لم يُدعَوا ومن لا يمكن أن يدخلوا في حساب، ويكون فقيرًا لا يعرفه أحد، ويموت له واحد، فيقيم سرادقًا يزحم الشارع كله - ويتعجب للأجانب الذين يصنعون الطعام على قدر الحاجة، ويضحك منهم - إلى آخر هذه المظاهر التي تدل على أن المصريين يتعلقون بمعاني الجلال أكثر من تعلُّقهم بمعاني الجمال.

ومظهر آخَر لروح الفن: ترى في الطريق رجلين يتشاتمان، ويوشك أن يتضاربا فتقف لترى ما يكون منهما، فتسمع أحدهما يقول للثاني إنه سيأكله بلحمه

وعظمه. فيرد عليه الثاني بأنه سيفرمه فرمًا وينثر لحمه المفتت للكلاب، فيقول الأول بل هو سيتناوله ويضرب به الأرض ويبطحه. فيقول الثاني إنه سيقتلع له لسانه من جذوره حتى لا يثرثر بعد ذلك، وسيفقأ له عينه ليعمى، وسيفعل كيت وكيت بيديه وأذنيه، فيعود الأول إلى وصف ما ينويه من ضروب التمثيل بخصمه.

ويظلان هكذا حتى يدخل بينهما المصلحون وتمضي كل جماعة بواحد وينفض السامر ويصفو الجو، وقد سمعت من يعيب المصريين بهذا وينعتهم بأنهم أمة قوّالين لا فعّالين، ولست أرى رأي هذا العائب؛ فإن الأمر مرجعه إلى الروح الفنية، ويخيل إليّ أن المصري يجد لذة مغرية بالاسترسال في طلب تذوقها حين يصور لنفسه وللناس ضروب الأذى التي ينوي أن ينزلها بخصمه، ويظهر أن لذة التصوير والوصف تفوق عنده كل ما عسى أن يفيده من الرضا والارتياح إذا هو أوقع بخصمه فعلاً، وكأني به يقيس، فيما بينه وبين نفسه حقيقة الأذى الذي يستطيع أن يصيب به خصمه، إلى ما يتخيل ويشتهي من ذلك ويتمنى لو رآه في الحقيقة والواقع، فيجد أن الحقيقة دون الخيال، ويسحره الخيال ويفتنه بما يعرض عليه من الصور فيذهب معه، وهذا عندي هو التأويل الصحيح لهذه الظاهرة.

وقد أشرت في محاضرتي إلى روح الفكاهة عند المصريين. فلا أعود إلى ذلك ولكني أقول إن قوام كل أدب وكل فن - إذا آثرنا البساطة في التعبير وزهدنا في الحذلقة الفارغة والفلسفة التي تعقِّد الأمور - أن للآداب والفنون دعامتين كبيرتين هما الملاحظة والخيال، وأظن أن فكاهة المصريين وحدها كافية للدلالة على عظم نصيبهم من هاتين، فما من سبيل إلى فكاهة بغير ملاحظة دقيقة وخيال يقيس ما هو كائن إلى ما ينبغي أن يكون.

وكثيرون منا أدركوا عهد الشاعر ذي الربابة على دكته العالية وسجادته أو فروته، ولهذا نظير في العصور القديمة عند الأمم الأخرى، ولكن الذي ليس له نظير في غير أمتنا- فيما أعتقد - أن الشاعر لا يقص الحكاية كلها، بل يقتصر على بعضها ويكف عن الرواية قبل أن يبلغ النقطة الحاسمة؛ ليترك السامعين متلهفين على البقية بعد أن حرّك نفوسهم لها، وقد تكون هذه تجارة ليعود الناس إليه في الليلة التالية.

ولكن التجارة لا تروج إلاَّ حيث تكون لها سوق، ولولا أن طبيعة الناس تسمح بهذا السلوك لما استطاع الشاعر التاجر أن يستغل الرغبة في الاطلاع والارتياح.

والأمر الثاني أن السامعين يندمجون مع أبطال القصة ويشاركونهم في شعورهم وينقسمون، فالبعض ينحاز إلى واحد من أبطال القصة، والبعض يؤيد خصمه. وقد كان يبلغ من قوة الاندماج بالخيال مع الأبطال أن تقع المشاجرات الدموية بين السامعين المختلفين، بل أن تُطلَّق النساء أيضًا من جرّاء ذلك، ولا يمكن أن يقع مثل هذا إلا في أمة مطبوعة على روح الفن مع البساطة والسذاجة.

***وحسبي هذه الأمثلة التي يسهل القياس عليها.

ومن سوء الحظ أن المدنية الغربية تطغى على مصر طغيانًا شديدًا يوشك أن يطمس الخصائص المصرية وينكرها، ويجعلنا صورة طبق الأصل من أوربا، ولا خير في هذا، وإنما الخير أن نحتفظ بخصائص روحنا من غير أن نهمل ما يمكن اكتسابه من مدنية الغرب، ولست أعني أني أريد أن يعود عهد الشاعر ذي الربابة، وعهد الأفراح الصاخبة، وإنما أوثر أن تبقى روح مصر مصرية، وأن تحافظ على خصائصها، وأن لا نخجل من مظاهرها في حياتنا وسيرتنا وعاداتنا، وأظن أن هذا هو الذي سيكون بعد أن نشبع من التقليد ونجتاز فترته.

النكتة المصرية

نشر في مجلة : الهلال – بتاريخ يوليو١٩٤٧

النكتة مظهر فطنة، والأغلب أن يكون مدارها على ظاهر السلوك، ويندر أن يستطيع صاحبها التحليق فوق المظاهر، أو الغوص إلى الأغوار البعيدة، وهي تُضحِكنا بما فيها من مقابلة بين أمرين أو حالين أو سلوكين، مستورين، أو مستور وبادٍ، أو باديين. مثال ذلك ما عُزِي إلى صديقنا الأستاذ محمد خطاب بك من أنه قال لسيدة زعمت أن زوجها يهدي إليها في كل عيد ميلاد لها مائة جنيه:

« إذن أنت مليونيرة! » وكثيرًا ما تدور النكتة على تشابه الألفاظ في الجرس واختلاف في دلالاتها أو معانيها، ومثل هذا الضرب لا سبيل إلى نقله إلى لغة أخرى؛ لأنه يتعلق باللفظ لا بالمعنى أو الصورة، وفي النكتة معنى النقد، بالسخرية والتهكم وما نسميه « القفش ». كان للمرحوم إمام العبد الشاعر الزجال صديقٌ يقضي النهار في النوم والليل في السهر، فقال إمام على سبيل « القفش » لصديقه وتصوير حاله المقلوب، إنه رسم صورته عصر يوم بالقلم الرصاص على « طاولة » في مقهى، فلما غابت الشمس نهضت الصورة واقفة!

****

أما الفكاهة فشيء مختلف جدًا؛ لأنها تدور على المعاني والحقائق، وتغوص على الجوهر، ولا تتعلق بالصور العارضة، وأنا أخالف من يذهبون إلى أن هناك فكاهة لفظية وأخرى معنوية، وعندي أن ما يسمى فكاهة لفظية أولى به أن يدخل في باب النكتة، وأخالف أيضًا من يظن أن الفكاهة من شأنها أن تغري بالضحك أو على الأقل بالابتسام، وعندي أن الفكاهة قد تضحكك أو لا تضحكك، فليس هذا

بالذي له قيمة، وهو راجع إلى الأسلوب الذي يساق فيه المعنى. وقد تجيء الفكاهة صارمة الجد، بل أصرم من الجد نفسه. وسواء أحملتك أم لم تحملك على الضحك أو الابتسام، وأدخلت أو لم تُدخِل على نفسك السرور، فإنها لا بد أن تغريك بالتأمل والتفكر، والنظر والتدبر، وسأسوق مثالًا واحدًا له نظائر كثيرة: قصيدة الشاعر الإنجليزي توماس هاردي اسمها على ما أذكر «وفد الأرض»، وفيها يتخيل الشاعر أن وفدًا من الكرة الأرضية صعد إلى السماء، واستأذن فدخل على «الرب»، وشكا إليه سوء حال الجنس الإنساني، وما يلاقي من الحروب والأوبئة والطواعين والظلم والقسوة إلى آخر ذلك. فأخذ الرب يتفكر ويحاول أن يتذكر، ويقول كمن يُحدِّث نفسه: الأرض؟ الجنس الإنساني؟ إني أتذكر أني قبل ملايين من السنين خلقت شيئًا كهذا في جملة ما خلقت من ملايين الكواكب والنجوم. فهل هذه الأرض لا تزال موجودة؟

وهنا ينبغي أن أقول: إن الشاعر مسيحي صحيح الإيمان بدينه، وليس بملحد كما قد يسبق إلى وهم القارئ، وقصيدته هذه تنتهي بما يشهد له بصحة العقيدة وعمق الإيمان. وهو لا يريد أن يقول إن الله – سبحانه- نسي الناس وكرتهم الأرضية، وإنما يريد أن يصور ضآلةَ هذه الكرة - التي يتوهم الأكثرون أنها مركز الدائرة وقطب الرحى في هذا الكون المهول الذي لا يُعرَف له أول أو آخر- وهوان شأن الإنسان المغرور المنتفخ الأوداج. وقد نبتسم حين نقرأ قول الشاعر على لسان الرب فيما يتخيل: ألا تزال هذه الأرض موجودة؟ ولكن الابتسام يغيض حين تدرك المعنى المقصود، وتفطن إلى ما بطن به هذا المزح، فتروح تفكر في هذا الإنسان الضعيف المغتر، وهو أن شأنه شأن أرضه، وطموحه المضحك على الرغم من جلاله وتوهمه

أنه شيء له قيمة، وسعيه ودءوبه، وتعثره وتخليطه، وتوفيقه مرة وإخفاقه مرات وحيرته حيال الأقدار الراصدة له في حيث سلك إلى آخر هذا، ودَأْب توماس هاردي ووكده، في شعره ورواياته، أن يضع الإنسان في كفة، والأقدار في كفة أخرى، والقدر غالب، ولكن هاردي لا يسخر من الإنسان، بل يعطف عليه ويرثي له، بغير كلام يُعرِب به عن العطف والمرثية، لأن قلبه كبير، وأفقه واسع، على خلاف أناتول فرانس معاصره، فإنه مروعر.

****

ويُخيَّل إليَّ أن النكتة المصرية بنت عوامل ثلاثة على وجه الخصوص:

أولها: ما اشتهر به المصريون من أقدم العصور من الذكاء الفطري وحدة الفؤاد وحضور البديهة وسرعة الخاطر، وليس هذا مدحًا، وإنما هو تقرير حقيقة وقد يخفى هذا الذكاء من جراء الأمراض الوبيلة التي تستنفد الحيوية وتترك من يعانيها أشبه بالبُلْه أو الأغبياء، ولكن هذه الأمراض على شدة فتكها بالأبدان وامتصاصها لحيويتها، لم تستطع أن تحجب فطنتهم الطبيعية فلا تزال ألسنتهم – على الرغم منها – تجري بالنكتة اللاذعة والسخرية المُرَّة.

وثانيها: ما هم مفطورون عليه من الجَلَد المدهش، والقدرة على التشدد والصبر والاحتمال، ومن أعون الأشياء على الجَلَد أن تستطيع أن تهوّن الأمر على نفسك بنكتة ساخرة، وأن تهوّن أمر مَن منه بلاؤك ومصابك بأن تركبه بالهزل، وأن ترسم له صورة تغري بالضحك منه، والاستخفاف به، وبذلك تدرك غرضين: تخفّف وقع ما تكابد، وتشرح صدرك، والضحك مدد قوي للنفس، ونجدة في ساعة المحنة، ومَن وسعه أن يضحك وهو يتوجع، فقد وسعه أن يستل الإبرة الواخزة، وينزع السهم الواقع. والغرض الثاني أنك

تشعر بأنك أخذت ثأرك وشفيت نفسك، وانتقمت من ظالمك أو خصمك بتحقيره وتصغير شأنه وإضحاك الناس منه. بل هناك غرض ثالث تدركه بالنكتة، هو أن مَن تُطلِقها عليه يكون قد أخفق؛ لأنك إذا استطعت أن تقابل عنته وجوره أو لؤمه بضحكة ساخرة. فكيف يمكن أن يقال إنه قد نالك بمساءة؟ أو أن ما توهمه مساءة قد بلغ حيث يريد؟

وثالثها :أن المصري عاش في ظل حكم استبدادي غاشم آلافًا من السنين، والعسف يورث النفوس مرارة، ولا يبيت الناس منه إلاَّ على حذر وتقية، وإذا كان المصريون لم يستطيعوا في هذه الأدهار الطويلة أن يغيِّروا الحال تغيُّرًا يمحو ما استقر في أعماق نفوسهم. فقد كان ملجؤهم التحرز وإضمار سوء الظن وإطلاق اللسان. وألفوا أن يدعوا حكامهم وولاة أمورهم يفعلون ما يشاءون على أن يقولوا هم فيهم ما يشاءون، ولست أعرف أمة أخرى - وقد أكون مخطئًا - تبسط ألسنتها في رجالها ورؤسائها وحكامها كما يبسطها المصريون، أو تحرص على حرية «الاغتياب» مثل حرصهم. وأحسب أن «الحاج» براون لم يخطئ حين استخلص في كتاب «بونابرت في مصر» من تاريخ الجبرتي، أن من أسباب ثورة المصريين مرتين على الجيش الفرنسي الذي دخل مصر بقيادة نابليون، ما فرضته قيادة هذا الجيش على المصريين من قيود على حرية الكلام، أو على الأصح حرية "الاغتياب".

ولعل هذه العوامل التي ذكرتها هي التي جعلت المصري أمْيَل - في الأغلب والأعم -إلى النكتة منه إلى الفكاهة بالمعنى الصحيح. وأقدر عليها، على أني قد أكون مخطئًا في تصوري أو تصويري، ومَن ذا الذي لا يخطئ؟ ولكني أظن أني على صواب.

سـيرة ذاتيـة

الاسم : محمود محمد محمود القليني

عضو اتحاد الكتاب بالقاهرة – عضوية عاملة رقم ١٩٧٧

الهاتف : ٠٠٢٠٤٥٣٣٢٠٠٣٩

النقال : ٠٠٢٠١٠٦١٤١٤١٢٤

البريد الالكتروني :elkellenymahmoud@yahoo.com

الأعمال المنشـورة :

١- إنهم يذهبون : قصص قصيرة دار الشعب بالقاهرة –١٩٨٢.

٢- الدجال والشيطان : روايـة مركزمعروف بالإسكندرية –١٩٨٥.

٣- إخناتون والكهنة : مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة-.١٩٩٥

٤- محنة الإمام أحمد بن حنبل: مسرحية الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٧.

٥- مصرع الخراساني : مسرحيةالهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة٢٠٠٢ .

٦- غائب لا يعود : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة بالقاهرة .

٧- الفكر الإسلامي ومستجدات العصر: كتاب المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ٢٠٠٥ .

٨--عش حياتك سعيدا : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار – ٢٠٠٥.

٩-- النساء فقدن عروشهن : كتاب مكتبة العلم والإيمان بالمنصورة ٢٠٠٦.

١٠- العمرية - في رحاب عمر بن الخطاب: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠٠٧.

١١- أمير الصحافة العربية : كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار٢٠٠٩ .

١٢- شخصية موسى النبي : كتاب مكتبة بستان المعرفة٢٠١١ .

١٣- الإسكندرية عناقيد العشق والغضب، روايةمكتبة بستان المعرفة ٢٠١١.

١٤- الثورة في وجدان المصريين:كتاب مكتبة بستان المعرفة ٢٠١٢.

١٥- الباحثون عن الله: كتاب دار العلم والإيمان بدسوق٢٠١٣.

١٦- الخروج من الجلد، رواية مكتبة بستان المعرفة٢٠١٣.

١٧- بلد راكبها عفريت : مسرحية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٢٠١٠.

١٨- شخصية المسيح:كتاب مكتبة بستان المعرفة بكفر الدوار ٢٠١٤.

١٩- شخصية النبي محمد : كتاب دار العلم والإيمان بدسوق ٢٠١٤.

الجوائـــز :

١- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية محنة الإمام أحمد.

٢- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية إخناتون والكهنة.

٣- جائزة التأليف المسرحي من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن مسرحية مصرع الخراساني.

٤- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (الذاتية والقيم الوجودية في أدب إبراهيم عبد القادر المازني).

٥- جائزة الدراسات النقدية من المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عن دراسة بعنوان (قيم ومعايير في أدب يوسف إدريس).

٦- جائزة المقالة النقدية من المجلس الأعلى للثقافة عن دراسة على قصة (الطريق) لنجيب محفوظ.

٧- جائزة من نادي أبها بالمملكة العربية السعودية عن مسرحية محنة الإمام أحمد بن حنبل ١٤١٧هـ.

٨- جائزة من نادي القصة بالقاهرة عن رواية بعنوان (قوس قزح) ٢٠٠١.